الهروب
إلى حافتي الحلم

تصميم الغلاف:

عبد العزيز محمد

علي أحمد العبد الله

الهروب
إلى حافتي الحلم

روايـة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

-٣-

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّر **(بالضرورةِ)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها.

ما إِنْ سَمِعَتْ خديجةُ صوتَ قفلِ بابِ غرفةِ زوجِها سلمان يُفْتَح حَتّى انفرجت أساريرُ وجهها المقطب وزالتْ عن جبينِها علاماتُ الضيقِ والضجرِ وغمرتْ شفتيها ابتسامةُ سعادةٍ خفيةٍ، فاجتازت مسرعةً فناءَ منزلِها الواسعَ؛ وقطعت الطريقَ عَلَىْ زوجِها قَبْلَ أن يصلَ إلى سطحِ منزلِه الطينيّ متخطياً درجات السلم الخشبي واحدةً بَعْدَ الأخرى؛ ينتظرُ غروبَ الشمسِ ويَرقُبُ قرصهَا وَهُوَ يَهْبطُ من كَبِدِ السماءِ كرغيفِ خبزٍ غادرَ للتوِّ حجرةَ النارِ، ليبدأ بِعَدِّ نُجُومِ السماءِ، تِلْكَ العادةِ التي بدأتْ عَلَىْ شكلٍ من أشكالِ الهوايةِ التي تجلبُ لنفسِه المتعةَ وانتهتْ بواجبٍ يوميٍّ يستهلكُ مِنْهُ سويعاتٍ يمتدُّ حَتّى يَغلبُه النعاسُ ويسلمُ رأسَه لنومٍ عميقٍ عَلَىْ الكيفيةِ التي يقفُ عِنْدَهَا مَعَ آخرِ نجمةٍ يضيفها لقائمةِ النجومِ التي اعتادها واعتادته وَهُوَ مستلقٍ عَلَىْ سريره يعيدُ تشكيل ورسم حلمه الذي هُوَ مصدر سعادته، فيقطعُ جسرَهُ الطويل من البداية إلى النهاية وَكَانَ خلاله – الحلم – يُحدقُ مَليَّاً في السماءِ الواسعةِ، فيعتريه تصلبٌ سَخِي ويشعرُ باندفاعٍ يُزيلُ كلَّ الغثيانِ الذي يَسحَقه في النهارِ، ويتابعُ حلمه، لكنّه حِيْنَ يصلُ إلى نهايتِه يُدركُ أَنَّهُ لَمْ

يحصل إلَّا عَلَىْ خيالٍ ما يلبثُ حَتّى يَضمحلّ ويختفي، فينكفئُ راجعاً إلى غرفتِهِ، ويغلقُ البابَ منتظراً مساءً جديداً.

عشرون عاماً مرت، وربَّما أكثر، لَقَدْ أَهْمَلَ حسابَ السنواتِ بَعْدَ أن ملَّته، قَبْلَ أن يَملَّها، لكن لَمْ يملَّه سطح منزلِه الذي احتوى سريره واعتادَ عليه؛ تَرقبُ عيناه السماء، تنتقلُ من نجمةٍ لأخرى، جَسَدٌ مُتصلٌ ببرودةِ الحديدِ.....

لقد حدثَ لَهُ شيءٌ مَا، ليسَ بوسعِ أحدٍ الشك في هذا، ربَّما عَلَىْ شكلِ مرضٍ، ربَّما عَلَىْ شكلِ تقوقعٍ لوثة في ثنايا دماغِهِ، لكنَّ شيئاً ما قَدْ دفعَ بِه نَحْوَ العزلةِ وطَرْقِ بابٍ لَمْ يكن ضمنَ أجندةِ حياتِهِ الراهنة، لَقَدْ انسحبَ رويداً رويداً، دُوْنَ أن يلحظَ أحدٌ مَا ذَلِكَ، واعتادَ الجميعُ غيابَهُ، فكفَّ عن الحركةِ وكضفدعٍ أعدَّ نفسَه لسباتِ شتاءٍ طويلٍ توقف كلُ ما كَانَ يحسُ بِهِ نَحْوَ العالم، وتساءلَ عن سببِ توقف هذا الإحساس، لكنّه لَمْ يكلف نفسَه عناءَ البحثِ، فَقَدْ غَلَّفَ نَفْسَهُ بالصمتِ وأغمضَ عينيه ونامَ دُوْنَ أن يتذكر يومَ سباته وتركَ العالم يتذكره مرة كلَّ عام كعيدٍ يُقَدَّمُ فيهِ النبيذ الأحمر المعتق في ليالي الشتاء الباردة ويُنسى لعامٍ كاملٍ قادم.....

خلالَ تِلْكَ السنواتِ كَانَ الحلمُ يلازمه كظلِّه، يحـوِّلُ بُـؤسَ حَاله إلى فَرْطِ سعادةٍ تَهبِطُ عَلَيْهِ من بدايةِ الحلم حَتّى نِهايتـه وإنْ كَانَ الحلمُ لَمْ يغيرْ شيئاً في حياتِه عَـلَىْ مـرِّ الـسنين العـشرين ولم يَستطعْ اطلاع أحد عَلَيْهِ لِمَا يحتويه من غرابةٍ غير معهودةٍ، فعاشَ مشغولاً مهموماً بِحلمه، إلا أنَّ قلبه – عَلَىْ طولِ فترةِ الحلـم – استطاعَ أن يحتفظَ بكلِّ تفاصيله، الأمـر الـذي زادَ مـن عزلتـه، فأكسبَ وجهه كآبةً، وغلب عَلَيْهِ الخوفُ والجزعُ أن يقضيَ قَبْلَ تحقيقه، واكتسبَ نحولاً بَعْدَ أن كَانَ مفتولَ العـضلاتِ وغـابَ صفاء عينيه الزرقاوين وإن احتفظ برغبةٍ جارفةٍ لتحقيقِه.....

لزمت خديجةُ الـصمتَ ومَـدَّتْ ذراعيهـا تَحـولُ بينَـه وَبَـيْنَ السلّم الخشبيّ المؤديّ إلى السطحِ، فالتفتَ إليهـا دُوْنَ أن تتغـيرَ ملامحُ وجهَه التي اعتادت عليها، فَهُوَ لا سـبيلَ لإدهاشِـه ولا لإزعاجِه، بَلْ وجَّه إليها العبـارةَ نفـسها التـي كُلَّـمَا اعترضـتْ طريقَه – وكثيراً ما فعلتْ – بصوتٍ متهدجٍ حَزين:

- أنتِ مسؤولةٌ عنَّا جميعاً يا خديجة!

ثُمَّ أردف:

- أدعوكِ إلى إبداءِ رأيك، لكن بكلماتٍ مُقْتَضَبَةٍ لا فائدة من الشرحِ الطويلِ. ألسنا في بدايةِ الطريقِ والمستقبلُ الزاهرُ أمامنَا ؟!!

ومضتْ فترة سكوت يكتنفها غضبٌ مبطنٌ، ثُمَّ تنهدتْ وقالت بحسرةٍ:

- نعم أنا المسؤولة عنكم جميعاً لكن ألا تُساعِدني في ذَلِكَ ؟!!

فقالَ وَهُوَ يدفعُ بِهَا عن طريقِه بلطفٍ:

- أنا لا أستطيعُ أن أساعدَ نفسي، فكيفَ أساعدُكِ يا خديجة ؟!.

كانت مقتنعةً برأيِهِ مِنْذُ البداية، لكنَّ مُحاولاتِها كانت تمثلُ لَهَا طريقاً لإخراجِه مِمَّا هُوَ فيه، لكن عادت وتورد وجهها وبَدَتْ كطفلةٍ تنظرُ إِلَيْهِ وتبحثُ عن ذاك الشاب الوسيم الذي تسابقت فتياتُ القريةِ إلى نيلِ حظوةٍ في قلبِه، إذْ إنه الشاب الوحيد الذي حَصَلَ عَلَىْ الشهادةِ الثانويةِ، فَكَانَت السبَّاقةَ إلى قلبِه، وَلَمْ يذهبْ عن خاطرِها تِلْكَ السنوات المريرة التي عاشتها تُعاني خِواءً عاطفياً مرعباً، وضنك عيشٍ وتبعاتِ ضيقِ الأملِ بَعْدَ زواجِها، إذْ نَجَحَ بالحصولِ عَلَىْ مقعدٍ في بعثةٍ لدراسةِ الطبِّ في الاتحادِ السوفيتي، فسخطت عَلَىْ مرارةِ العيشِ وراحتْ تكيلُ لحظِها العاثر الاتهام بعدمِ التروّي بالقبولِ به

زوجاً، لكنّها وتحت تأثيرِ حلم المستقبل تنازلت عن سخطها ورضيت بالعيشِ كفافاً ريثما يعودُ طبيباً.....

ووجدَ نفسه عَلَىْ السطحِ وحيداً – كالعادة – ولفحته ريحٌ باردةٌ هبتْ، فَحَرَّكَتْ شجيرات الزيتون المحيطة ببيته، فَسَرَتْ في أنحاءِ جسدِه رعشة لَمْ تثنِهِ عن عادَتِه اليومية، فزمَّ شفتيه منتظراً أن يُكمِلَ الليلُ زحفَهُ عَلَىْ الكونِ ليبدأ بِعَدِّ نجومِ السماءِ، غير أن عارضاً تمثلَ لَهُ عَلَىْ شكلِ تَرَنُّحٍ، فَأغمضَ جفنيه ولبثَ بلا حِراكٍ، ثُمَّ هَوَى سَاقطاً جَانِبَ سريره مغشياً عليه.

بلغَ صَوْتُ ارتطامِه عَلَىْ السطحِ، فَطَغَى عَلَىْ عقلِ خديجة رُعبٌ تَبِعَهُ تَخيلٌ لصورةٍ أجبرتها عَلَىْ الاندفاعِ حافيةَ القدمين تركضُ نَحْوَ السلم الخشبي المؤدي إلى السطحِ، فَقَطَعته كلاعبةِ سيركٍ مدربة؛ لتجدَ زوجها مُمَدَّداً بلا حراك، فانكبتْ نحوه بعنفٍ، وأحاطته بذراعيها، ولاحَ عَلَىْ وجهِها الجميل الذعرُ؛ وبقوةٍ جنونيةٍ حملته وهبطت به مرتاعةً تدعو الله في سرها حَتّى أسلمته إلى سريرهِ وشرعت بإنعاشِه، وسرعان ما فَتَحَ عينيه وَلاحَتْ منهما ابتسامةٌ ظهرتْ عَلَىْ طرفِ شفتيْهِ ما لبثت أن تحولتْ إلى نظرةٍ ملؤها الحزنُ والكآبةُ، فَعَادَ يغمضُ عينَيه

ويغرقُ في ذاكرتِه بينما أمسكت خديجة بيـدِه وقبَّلتهـا وأعادتهـا تحتَ الغطاءِ ومكثت عِنْدَ رأسِه تنظرُ إِلَيْـهِ بحـزنٍ بيـنما ابتلعتـهُ ذاكرته تماماً.....

كانَ القطارُ يطوي المسافات طياً بطيئاً مانحاً كَـمًّاً هـائلاً مـن الوقتِ كي يودعَ امتدادات السهولِ بنظرةٍ حزينةٍ كئيبة، لكن ما لبث أن غمرته بعض السعادةِ حِيْنَ تذكر أَنَّه قَدْ نَفَّذ ما طلبته أمّه منه قَبْلَ الرحيـلِ، فـزارَ مقـام الـشيخ " الكحـيلاوي "، وأوفى النذر الذي نذره، وَدَسَّ في جيبِ خادمِ المقامِ بعـض القـروشِ، ورجاهُ أن يطعمَ لحمَ نذرهِ لزائري المقام، وزادَ شعوره بالسعادةِ أكثر حِيْنَ تذكرَ أَنَّه أوصى خديجة بِضرورةِ المحافظةِ عَـلَىْ زيـارةِ المقامِ وتقديم النذر نفسه في كلِ عامٍ.

اضطربتْ نَفسه قليلاً وَهُوَ يذكرُ كلـمات أمّـه العجـوز إِلَيْـهِ وَهِيَ تودعه:

- " يما... حبيبي اركب بالقطار أجرته أرخص ولا تـصرف إلا عَلَىْ قدك وإذا علمت أن مكروهاً قَدْ أصابني، فلا تجزع كلنا سنموت يوماً، المهم أن تعودَ طبيباً يا سلمان " !!!

- " يـما يـا سـلمان الحكومـة أحـسن مـن إخوانـك، لأنَّهـا ستصرف عليك حَتّـى تـصير دكتـوراً، كـل واحـد لاف حالـه بحضن مرتو مثل الكلـــ.... "

- " لا يما لا تكملي... "

- " تكرم حبيبي تكرم ما رح أكمل، لكن ما في واحد مـنهم ناولك ليرة سورية؛ عرفت ليش الحكومة أحسن منهم ؟ وأنت كمان يما يا سلمان أنت أحسن منهم "..... .

استرقَ النظر إلى خديجة وَهِيَ تقفُ مطرقةً متـشحةً بالـسوادِ وبدت ذابلةَ الوجنتين كأنَّها تنوءُ بحملِ أثقالٍ عَلَىْ كاهلها، فمنذ زواجها القريب به دأبت عَلَىْ خدمتِه ورعايتِه وتفانت أيَّما تفانٍ، ثُمَّ قَالَتْ دامعة العينين:

- لا تنسى أن تبعـث برسـالةٍ كـلَّ أسـبوعٍ لَـنْ أسـامحك إذا تـأخرت رَسَـائِلُكَ أسـبوعاً واحـداً، ومـدت يـدها نَحْـوَ يـدهِ وانحنت تُقبلها، لكنّه استخلصَ يده برفـقٍ وربـتَ عَـلَىْ كتفِهـا بحنانٍ ونظر إلى وجهِها ذي البـشرةِ العاجيـة، ثُـمَّ مَـسَحَ بيـدِه عليه، وتأبطَ ذراعَها بيدٍ وذراعَ أمّه بيدِه الأخرى حَتّى وصلَ إلى بابِ القطارِ، فَصَعَدَ إِلَيْهِ وَهُوَ يَمُطُ صفيره مغيباً آثار نـواح أمّـه العجوز وتنكفئ متراجعةً حَتّى غابت عن ناظريه.....

لم تمضِ دقائقَ حَتّى وَجَدَ نفسه يتذكر أخويه وبَكَى لأنَّهما لَمْ يكونا في وداعِهِ، فحدَّث نفسَه وأوهمَها أن لا علمَ لهما بخبرِ البعثةِ الدراسيةِ؛ رغمَ تفشي خبرها في القريةِ الصغيرةِ كالوباء، مَعَ أنَّه كَانَ يعلمُ في قرارِ نفسه أنَّهما يعلمان بالخبرِ لكنّهما مِنْذُ البداية لَمْ يكونا راضيين عن دخولِه المدرسة الابتدائية لِمَا لَهَا من تبعاتٍ ماليةٍ وتَحمُّلٍ لمصاريفِ تعليمِه وَقَدْ أخذ نصيبه من الأرض بَعْدَ وفاةِ أبيه من ناحية، وخوفهم من أن يتفوقَ عليهما وَهُوَ الأصغر سناً من ناحية أخرى.....

لم يخامره شكٌ ولم يَغِبْ عن بالِه شعورُه بأنَّه يتفوقُ عليهم جميعاً، وظلَّ الولاءُ لهذا الشعور يلازمه، فراحَ عَلَىْ استغرابٍ منهم الإقبال عَلَىْ الدراسةِ وتفوقَ عَلَىْ أقرانِه وأقبلَ عَلَىْ شراءِ الكتبِ وقضاء كلّ أوقات فراغه في المطالعة، فاكتسبَ مزايا حسنةً كثيرةً، وتمتعَ بروحٍ مرحة ومسحة جمالٍ فريدة وقوام ممشوق وامتلاءٍ بلغَ حده، فمضت السنوات مسرعةً ونالَ الشهادة الثانوية، وازداد بياض وجهِه وخضبَ بحمرةٍ أظهرت أجملَ ما فيه عينان زرقاوان تلوحُ منهما لمعة ذكاءٍ متوقدة.....

فتحَ عينيه يسرقُ نفسه من ذكرياتٍ بعيدة فوقعتا عَلَىْ خديجة تجلسُ قُبَالَتَهُ مكتنزةَ الوجنتين – كسابقِ عهدِه بها – لكنّها

شاردة، فـأحسَّ ارتياحـاً وغبطـة عظيمـين وجعلـت عينـاه تدوران عَلَىْ أرجاءِ الغرفـة ومحتوياتهـا، ثُـمَّ نَظَـرَ إليهـا مـن جديد، وَقَالَ متكدراً:

- ألم يصلني كتاب إعادتي إلى البعثة يا خديجة ؟

تكدرت خديجة لتكدره، ثُمَّ جلجلَ صوتها:

- قلت لك مراراً لَقَدْ صدرَ قرار فصلكَ من البعثـةِ ولم تـتم بَعْدَ وماتت أمّك وتفكك الاتحاد السوفيتي مِنْـذُ عـشرين عامـاً ولا زلت تنتظرُ كتـابَ إعادتـك إلى البعثـةِ، ثُـمَّ اشـتدَّ انفعالها وتهدجَ صوتها بالنواح:

- ارحمني أرجوك ارحمني !!

فبادرها قائلاً وَقَدْ زادَ تكدره:

- لا تحاولي عرقلةَ طريقي إلى السطحِ، فَحلمي ما زالَ مـاثلاً أمامي ولن أسدل عَلَيْهِ ستاراً حَتّى أحققه.....

ثُمَّ اعتدلَ في جلسته وهبَّ واقفاً وهرولَ نَحْوَ السطحِ بينما امتدَّ صوتُ نحيبها يملأ باحةَ الدارِ الواسـعة وتنتظـر عـودة ابنها علاء.....

في مـساءِ اليـوم التـالي توجَّـه عـلاءُ قاصـداً محطـةَ الحجـازِ للقطاراتِ عائداً إلى بيتِه متمهلاً كعادتِـه، فَهُـوَ يـسيرُ في هـوادةٍ

ورفقٍ حَتّى كأنَّكَ تراه يسيلُ فوقَ الطريقِ؛ يحملُ حقيبةَ ملابسهِ التي ينوءُ بحملها، وعلى الرغمِ من ثقلها، فَهِيَ لَمْ تمنعه من النظرِ يميناً يساراً إلى المكتباتِ المنتشرةِ عَلَىْ الطريقِ الهابطِ إلى الحلبوني؛ يتصفحُ الكتبَ المعروضةَ خلفَ زجاجِ بواباتِها؛ إذْ كَانَ وَلَعه باقتناءِ الكتبِ داءً لا شفاءَ لَهُ مِنْذُ قُبِلَ في الجامعةِ الأمر الذي كلَّفَ أمّه عبئاً مالياً جديداً تدبرت أمره مِمَّا كانت تدَّخِره من محصولِ الأرضِ سنواتِ الخيرِ الوفيرِ.....

ابتاعَ تذكرةَ القطارِ وبانتظارِ موعدِ الرحلةِ ارتمى عَلَىْ أولِ مقعدٍ في صالةِ المحطةِ غير بعيدٍ عن البابِ يَنْظُرُ نَحْوَ السقفِ الذي تَدَلى من زاويتِه المثقوبةِ عشٌّ ضخمٌ لعصافيرِ الدوري التي نشطت بحركةٍ جنونيةٍ قبيلَ المغيبِ فابتسمَ بشيءٍ من الارتياحِ، لكن عارضاً كَبَحَهُ عن التمادي بهذا الارتياحِ حَيْثُ تمثلت لَهُ صورُ المناقشاتِ التي تنتظرهُ وقتَ وصولهِ إلى البيتِ، فوالده سلمان يكسرُ مراقبته للنجومِ وقتَ وصول ابنه علاء؛ ليشنَّ حرباً كلامية عَلَىْ كلِّ القوانينِ الوضعية التي يدرسها علاء في الجامعة ويشرعُ في التحدي لبدءِ نقاشٍ عقيمٍ دأبَ سلمانُ عَلَىْ مزاولتِه مِنْذُ أن كَانَ علاء طالباً في الثانويةِ، وقُطِعَ عَلَيْهِ حَبل أفكاره حِيْنَ طُلِبَ بمكبرٍ للصوتِ من المسافرين التوجه إلى مقاعدهِم.....

عندما صعدَ علاءُ إلى عربةِ القطارِ كانت الشمسُ توشك أن تختفي وبَدَتْ عرباتُ القطارِ كشبحٍ بنيٍ طويلٍ يمخرُ عبابَ الطريقِ خارجاً من ازدحامِ المدينة يوم الخميس، فَكَانَ – علاء– ينصتُ باهتمامٍ وسرورٍ إلى هديرِ صوتِه ويراقبُ المنظرَ البهيج الذي تتركه سكةُ القطارِ خلفها ويتركُ لنفسِه تخيل المائدة التي ستفاجئه بها أمّه حِيْنَ عودتهِ من المدينةِ كلَّ خميسٍ، لكنّه قُطِعَ عَلَيْهِ حبل أفكاره حِيْنَ مدَّ بَصَرَهُ فَرَأى رجلاً يَجْلِسُ قُبَالتَهُ يتفحصه بدقةٍ ذو بطنٍ واسعة جاهدت يداهُ حَتّى تلامستا فوقها؛ مكتنزُ الوجهِ أحمرُ الوجنتين حليقُ الشاربِ حريصٌ عَلَىْ وقارِه، فأطبقَ شفتيه وصدرت عنهما ابتسامةٌ عريضةٌ وَقَالَ:

- ألست علاء ابن سلمان الـ ... ؟

ومطَّ شفتيه بابتسامةٍ هازئةٍ !!

وجدَ علاءُ نفسه في موقفٍ عجيبٍ، فصمتَ قليلاً وتَفَكَّرَ في دواعي هذهِ الابتسامةِ الهازئةِ، ثُمَّ جاشَ صدره بالانفعالِ وتدافعَ الدمُ إلى وجههِ ترجمتها قَسَمات وجهه المحمرّة واندفاعه واقفاً وَقَدْ تصلبَ جسمه وتهيأ للدخولِ في عراكٍ وشيكٍ، فغمغم الرجلُ بصوتٍ غير مفهومٍ وَقَالَ لَهُ بلا مبالاة:

- هذا ما يؤكد أنَّكَ ابنه بحق !!

ثُمَّ قالَ متهكماً:

- أخبرني ألم تتحسن حالته ؟!!

غاصَ السؤالُ في أعماقِ علاء وبدا الرجلُ كأنَّه يعرفُ حكايَةَ أبيه من ألفها إلى يائِها؛ وفوراً سألَ سؤالاً يشابِه هذا السؤال وكثيراً ما سألَه رفاقه عن الحالةِ التي أوصلت أباهُ إلى هذه الحالِ، فانقبضَ قلبُهُ وعاوده إحساسٌ بالانكسارِ وَهُوَ يذهبُ بقدميهِ لمناقشةٍ حادةٍ لابدَّ أنَّ أباه يجهزُ لَهَا الآن، فاستسلمَ للحزنِ وَقَالَ للرجلِ:

- أتعرفُ أبي ؟

- نعم !!

وتطلعَ علاءُ إِلَيْهِ بوجهٍ يتلهفُ إلى الاستماعِ وَلاحَتْ في عينيهِ علاماتُ استفهامٍ وقفت تنتظرُ التوضيحَ بيدَ أنَّ الرجلَ عَادَ يمطُ شفتيهِ ويرسلُ ابتسامةً عريضةً، ثُمَّ زمَّ شفتيه متبرماً وَقَالَ:

- كَانَ والدكَ رجلاً ناريَ الطبعِ؛ لا يهادنُ في نقاشٍ يدخلُ فيه؛ بَلْ يصبُّ جامَ غضبه عَلَىْ أفكارِ محاورِه؛ شرساً في الدفاعِ عن مبادئِه لَمْ يتنازل حَتّى آلت حالته إلى ما تعرف !!

ارتاحَ علاءُ إلى هذا الجواب واطمأنَّ بالُه إلى أن الرجلَ يعرفُ أباهُ جيداً وسأله:

- كيفَ تعرَّفتَ إلى أبي ؟

أهملَ الرجلُ الإجابةَ عَلَىْ السؤالِ وَقَالَ:

- لو طرحَ سلمانُ السياسةَ وراءَ ظهرِهِ وأطاعني لكانَ الآن يرفلُ بصحةٍ وغنى، لكنّه رفضَ الاستفادةَ من انهيارِ النظامِ الشيوعي السابق!!

رفعَ علاءُ حاجبيه يرنو نَحْوَ الرجلِ الذي تابعَ بَعْدَ أن وقفَ ورمى بنظرِهِ إلى الشمسِ التي كست الأرضَ بظلالٍ حمراءَ معلنةً اكتمال غيابها:

- في العامِ الذي كَانَ العالمُ يَنْظُرُ إلى الشيوعيةِ وَهِيَ تنهار كَانَ أبوكَ يسكرُ بمبادئِها ويطمحُ أن تحلَّ مشاكلنا حَتّى دهمته الخيبة ورمت به يتسكعُ في أزقةِ روسيا يحتسي (الفودكا) حَتّى الثمالة ثُمَّ ألقته السلطات في أول طائرة إلى هنا.

ثُمَّ جلسَ الرجلُ عَلَىْ كرسِيْهِ وأخرجَ لفافة وأشعلَهَا ومجَّ منها ببطءٍ ونفثَ دخانها نَحْوَ النافذةِ وهزَ رأسه وابتسمَ بطرفِ فمه وكادَ الحديثُ أن يفترَ، فاندفعَ علاءُ يسأل:

- هل ضاعت آمالك كَمَا ضاعت آماله؟

لبثَ الرجلُ يُقلِّبُ عينيه عَلَىْ قبسِ لفافتِهِ ويمجُّ منها حَتّى ظنَّ علاءُ أن الرجلَ قَدْ ابتلعَ لسانَه، ثُمَّ هتفَ بحماسٍ:

- اسمع يا بني !!

فأنصت علاء مرهفاً.

- ليسَ هناكَ فشلٌ كاملٌ في الوجودِ، فكلُّ الـذينَ فـشلوا في دراستِهم خارجَ بلدانِهم أتقنوا لغةَ البلدِ الذي درسوا فيه؛ وهذا بحدهِ نجاحٌ يمكنُ أن يستفيدوا منـه كثـيراً، وهـذا مـا حـصل معي، فأنا وبعدَ تعثر البعثة الدراسية التي كنتُ مَـعَ أبيـكَ فيهـا عدت إليها كتاجرٍ للألبسةِ والأحذيةِ؛ الأمرُ الذي رفضَهُ أبوك، فأثريت أنا ونكصَ أبوك مهزوماً!!

خفقَ قلبُ علاء وعلت عينيه لمعةُ حزنٍ وَقَالَ للرجلِ بحزنٍ:

- نعم لَقَدْ استفادَ أبي من إتقانه للغةِ الروسيةِ فَقَدْ انكبَّ عَلَىْ ترجمةِ كتب ماركس ولينين لسنواتٍ بَعْدَ عودته وأحرقها في يومٍ عاصفٍ و.... فقاطعه الرجل:

- ثُمَّ ماذا ؟

صمت علاء قليلاً وكأنَّه يـستجمعُ الآثـارَ البالغـة لانقطـاعِ والده – لظرفٍ قاهرٍ - عن إتمامِ البعثة الدراسـية وأعـادَ تخيـل أثرهـا النفـسي والاجتماعـي الـذي قـاده إلى انفـصامٍ تـامٍ ميـزَ شخصه، فنالَ من الناسِ التحسر ومن الأقاربِ الإهمال.

نظرَ إِلَيْهِ الرجل بصمتٍ، ثُمَّ أهمله وأشعل سيجارة، ثُمَّ قال:

- أعرفُ أنك لا تستطيع الكلام وأعتقدُ أن والدك وصلَ إلى نقطةٍ لا يمكن الرجوعَ عنها لِذلِكَ – وكما أظن – أنت طالبٌ جامعيٌ انظر إلى مستقبلك، فَقَدْ تكون بالنسبة إِلَيْهِ مشروعاً ناجحاً لهدفٍ فشلَ في تحقيقه!!....

بلغَ الكلامُ في نفسِ علاء مبلغاً عميقاً، فأحدث يقظةً بهيةً وهبطت عَلَيْهِ هالة من سعادة وتخيلَ نفسه وَقَدْ أنهى دراسته للقانون في كليةِ الحقوقِ وَرَاْحَ تارةً يحلمُ بمكتبٍ لمحامٍ مشهورٍ يديره بنفسِهِ أو بمكتبٍ لنائبٍ عامٍ تارةً أخرى؛ ولَحِظَ الرجلُ شرودَ علاء وباغته قائلاً:

- نعم تابع حلمك؛ لكن حققه بسرعة!!

ابتسمَ علاءُ وجعلَ يختلسُ النظرَ إلى الرجلِ ويتفحصه بحذرٍ وَبَدَتْ عَلَيْهِ رغبة جامحة بالوقوف عَلَىْ تفاصيلِ وجهه بدقة وَرَاْحَ بترٍو يدني ملامحَه كَيْ يجعلها مألوفة حَتّى اعتقدَ أنَّه يعرفه، ثُمَّ تبتعد الملامح حَتّى يشعر أنَّه يراه لأولِ مرة إلى أن وقفَ كالملدوغِ وهتفَ وَهُوَ يضربُ كفاً بكفٍ وكأنَّه استعادَ صورته من هوةٍ سحيقةٍ في ذاكرته، وَقَالَ له:

- أنت عبدو الطاير ... أليس كذلك؟!!

ابتسم الرجل، ثُمَّ افتر فمه وقهقه بصوت عال وَقَالَ:

- ألا تذكر يا " أزعر " كم حملتك حِيْنَ كنتُ أتردد لزيارتكم وأنت طفل؟

وتولاه حياءٌ وتودد وقامَ ليعانِقه، لكنّه عَـادَ وانكفـأ جالـساً يتفكر في حال والده الـذي يـشحذ أفكـاره للتحـدي وأرسـلَ ناظريه من خلالِ النافذة، فبدا المساء يزحـفُ نَحْـوَ ليـلٍ أسـودَ ينتشرُ خلاله أضواء القرى المتناثرة حـولَ سـكةِ القطـارِ حَتّـى وصلت إلى محطة " إزرع " حَيْثُ توقف القطار ليغـادرَ الرجـلُ بَعْدَ أن حمَّله السلام لوالده وغاب في ظلمةِ الطريقِ.....

رَمَى علاءُ ما دار بينه وَبَيْنَ الرجل وراءَ ظهـرِهِ وتلـكَ عـادةٌ ماانفكَ يزاولها مِنْذُ سنين، فَهُوَ لا يَذْكُرُ شيئاً أمامَ والده عن كـلّ من يَسألُ عنه؛ فَقَدْ كَانَ حريصاً عَلَىْ إبقاء والده بعيداً عن كلِّ مَاْ يعيدُ إِلَيْهِ ذكريات البعثة الدراسية لأنَّه - وَقَـدْ حـصل – حِـيْنَ ذُكِّرَ مرةً بِأَحَدِ زملائِهِ في البعثة، فعصفت بالبيتِ ريـاحُ الجنـونِ وصبَّ سلمانُ جامَّ غضبِهِ عَلَىْ الأسرةِ أسبوعاً كاملاً.....

وَمَضَت دقـائق عَـاْدَ القطـارُ يمـطُّ صـفيرَه ويتـابعُ رحلتـه البطيئة، فَأَخَذَ الهدوءُ يتسربُ إلى علاء وعلا ضحك من العربـةِ المجاورة، فتطاولَ بجسدِهِ يميناً ليخـتلس نظـرات مـن خـلال المَمَرِّ لِشَعرِ فتاة رُبطَ عَـلَىْ شـكل ضـفيرة واحـدة ترتفـع عاليـاً

بسببِ الهواءِ الداخلِ من نافـذةِ العربـةِ المفتوحـةِ وَرَاْحَ يرهـفُ سمعه ويصغي لما قَدْ يضحكه معهم وينسى حالة الحـزن التـي تركه عَلَيْهَا عبدو الطاير.....

لمحـت الفتـاة بالـصدفةِ عـلاء يمتـدُّ بجـسدهِ نَحْـوَ الممـرِ، فابتسمت ابتـسامة لطيفـة وأومـأت إِلَيْـهِ تـدعوه إلى الانـضمامِ إليهم، فاندفعَ مبتسماً ودخلَ إلى عربتِهم، فَقُوبِـلَ بعاصـفةٍ مـن الضحك حِيْنَ اكتشفَ أنهم جميعاً طلاب جامعة يعـودون مثلـه إلى بيوتهم نهاية الأسبوع وبدا لَهُ أن وجوههم مألوفة جـداً إِلَيْـهِ مِمَّا زادَ في طمأنينته، فانضمَّ إليهم مسروراً عَلَىْ الرغم من قِـصَرِ المسافةِ المتبقيةِ للمحطةِ.....

كانَ علاء فتى طويلاً نحيلاً تكتسي عيناه بريقاً لامعاً وترتـاحُ فوقَ جبينه قسماتُ رجلٍ حزينٍ، لكـنَّ وجهـه مـشرق وابتـسامته دائمة وعانى مَعَ أمّه تبعات انهيار والده وانفصامه، فَكَانَ لزاماً عَلَيْهِ – كَمَا ربَّته أمّه – أن يتابعَ تحصيله العلمي وينهي دراسته الجامعيـة لحمل المسؤولية عن أمّه وَقَدْ فعل، فَلَقَدْ قُبِـلَ في الجامعـة في كليـةِ الحقوقِ؛ حلمٌ انجذبت إِلَيْهِ أحلامه، فراحَ يُقبِلُ عَلَىْ الدراسةِ بِنَهَمٍ وهمةٍ لَمْ يُعكره خلالها إلا المناقشات العاصفة التي كَانَ يخوضها مَعَ أبيه يكابدُ مرارةَ الانصياعِ لأهواءِ رجلٍ مريضٍ يتمتعُ بذكاءٍ متوقدٍ

يغوصُ في دقائقِ الأمورِ ويتقنُ فنَّ التلاعبِ عَـلَىْ المعـاييرِ والقـيمِ لعشرين عامٍ خلت وَكَانَ خلالها – سلمان الحسن - يكابـدُ عيـشة مريرة وهموماً مترعة لا تسكن ثائرته ولم يسكن غضبه دائمُ السخطِ والتبرمِ في البداية لكن وبعدَ أن أطبقَ الفصامُ عَلَىْ عقلِـهِ تحـولَ إلى ضحيةٍ، شُغِلَ بأحزانِهِ وارتاحَ بعزلتِه عـن النـاسِ، فتـولاه اليـأسُ والقنوط فلجأ إلى زوجته خديجة، فأظهرت الحبَّ والوفاء بأعلى صورِهِ بَعْدَ أن تيقنت أنَّ زوجها لَمْ تَعُد مِنه فائدة تُرجى.....

ابتسمت خديجة واستعدت نوافذُ وجهها لاسـتقبالِ مـساء مميز، فحلَّت مئزرَ المطبخِ بعنايةٍ وعيناها ساهمتان ترنـوان نَحْـوَ القادمِ الجديد؛ إلا أن حزناً يسيراً هَبَطَ عَلَيْهَا وَهِـيَ تنظـر نَحْـوَ زوجها وَقَدْ انفرجت أساريره حِيْنَ عَلِمَ بِقربِ قدومِ علاء مـن خلال رائحةِ الدجاجِ المشوي التي ملأت المطبخ، فجلـسَ عَـلَىْ كرسي خشبي وسطَ ساحةِ المنزلِ؛ وَقَالَ لها:

- علاء قادم أليس كذلك ؟.....

لَمْ تجبه، بَلْ هَزَّت رأسـها، ثُـمَّ رفعـت بـصرها نَحْـوَ الأعـلى وكأنَّها تدعو الله أن يكفيها شر النقاش ريثما ينهي عـلاء تنـاولَ طعام العشاءِ، لكن سرعانَ ما تبدَّد الحزنُ وَهِيَ تنظر نَحْوَ المنظرِ الأنيقِ لصفِ أطباقِ الكعكِ وكؤوسِ العـصيرِ المحـضر بعنايـةٍ

فائقةٍ، ثُمَّ هرولت وأنارت جَميعَ مصابيح الغرف، فألقت بِظلها عَلَىْ الأرائِكِ وفاحَ عطر عود البخور المتوهجِ يُشاركها فَرحتها بِقدومِ علاء لقضاءِ يوم الجمعة برفقتهم قَبْلَ أن يقفلَ راجعاً إلى العاصمةِ لمتابعةِ دراستِهِ.

عندما دخلَ علاءُ المنزلَ كَانَ أبوه مازالَ عَلَىْ الكرسي الخشبي، فألقى عَلَيْهِ تحيةَ المساءِ وقبَّل رأسَه وبدا أنَّه أكبر من عمره، فَهُوَ قَدْ تجاوزَ الخمسينَ بعامٍ واحدٍ، لكنّه ظهرَ وكأنَّه تجاوزَ الستين من خلالِ وجههِ النحيلِ المتطاولِ وجبهة عريضة يحدها حاجبان كَثَّانِ لكنَّهما متباعدان ومشى الشيبُ في مؤخرةِ شعرِ رأسه حَتّى تلاشى في مقدمته التي شكلت صلعة خفيفة وجسم تضاءل نتيجة شراهةٍ بالتدخينِ وشهيةٍ مريضةٍ عافت نفسه الوجبات الدسمة والخضار الطازجة والمتوفرة في فناءِ منزلِهِ الريفي.....

ووجدَ علاءُ نفسه أمام مائدةٍ عامرةٍ تفوحُ منها رائحةُ الدجاجِ المشويِّ مَعَ البطاطا والسلطة المشبعة بالليمون والكزبرة والنعنع، فأسرعَ بتغييرِ ملابسِه وغسلِ يديه ووجهه بسرعة وَنَظَرَ نَحْوَ أبيه وَدَعَاه لتناولِ العشاءِ مَعَه، لكنَّ الأب مطَّ شفتيه رافضاً وأشارَ إلى خديجة برغبتِهِ بكأس من الشاي، فهتفت ببعضِ العصبية:

- بَعْدَ العشاء سنشربُ الشايَ برفقةِ علاء.

فابتسم موافقاً وهزَّ رأسه وتَمَلمَل يسير باتجاهِ المائدةِ وَجَلَسَ قُبَالَةَ علاء الذي ظنَّ أن أباه سيفتحُ نار مناقشاتِه ولحظت أمّه ذلك، فتوسلت الله في سرِهَا أن لا يحصل ذَلِكَ قَبْلَ أن ينهي علاء طعامه؛ لكن سلمان الحسن ظهرَ بعينيه اللتين فَقَدَتَا نشوةَ الحديثِ وَرَاْحَ يمسكُ مبتسماً بورِكِ الدجاجِ المشويِّ وَرَاْحَ يُعَرِّقُ لحمه عن عظمه ويضعه في الطبقِ أمام علاء، ثُمَّ أمسكَ بالغضروفِ ومده باتجاهِ فَمِ ابنه وَقَالَ:

- أعرفُ أنك تُحبُّ أَكْلَ الغضروف!!

لَمْ يملك علاء نفسه إلا وَفَتَحَ فمه لأبيِه ليضعَ الغضروفَ فيه وَقَدْ وشَت عيناه بسعادةٍ ووقعَ هذا الفعلُ في نفسِه موقِعاً حسناً، فأخذَ الأمنُ يتسربُ إلى نفسِ خديجة واطمأنَّ خاطرها، لكنّها تساءلت محزونةً أتراه قَدْ أقلعَ عن جولاتِ نقاشِه العقيم وتأملت أن يهجرَ عادة عدّ النجوم، ثُمَّ دعت الله في سرها ثانية أن يفتحَ قلبه للحياةِ كَمَا كَانَ شاباً وشهقت في سرِهَا وَهِيَ تديمُ النظرَ إِلَيْهِ وكأنَّها قَدْ رأت تقدمه نَحْوَ كهولة مبكرة لأول وهلة:

- رباه كَبُرَ سلمان الحسن!!.....

بَعْـدَ ذَلِـكَ أوى سـلمانُ الحـسن إلى غرفتـهِ وخَلَـعَ ملابِـسَه واستلقى عَلَىْ السرير، فشغلت عيناه بدوائرِ الضوءِ المنداحة من سقفِ الغرفةِ؛ فتبعتهُ خديجـةُ وبيـدِهَا فوطـة مبللـة بـماءٍ دافـئٍ ومَسَحَتْ يديه من الآثار العالقة من الطعام وتبعها علاء ولعلّه لاحظ حالة الريب التي اعتلت وجه أمّه وَهِيَ تَلحَقُ بأبيِه حِـيْنَ غادرَ غرفةَ الطعامِ وَقَدْ كَسَرَ عاداته كلها – اليوم عَـلَىْ الأقـل - فوقف جانب سريره وَنَظَرَ نَحْوَ أبيـه وَهُـوَ يَهـزُّ رأسـه وأطـرقَ قليلاً وَلاحَتْ في عينيِه نظـرة حـزن عميـق؛ فأمـسك بيـدِ أبيـه وقرَّبَها من فَمِهِ وقبَّلها وَقَالَ لَهُ مُمَازِحَاً:

- أراكَ كرهتَ شرب الشاي معنا بَعْدَ العشاء!!

اعتلى وجه سلمان الحسن الوجوم والكآبة؛ وَلاحَـتْ بعينيـه نظرة شاردة، ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ علاء وَقَالَ بصوتٍ متهدجٍ:

- انتهت رحلتي يا بني!!

نظر علاء مرتاعاً نَحْوَ أمّـه التـي خامرهـا الخـوفُ والقلـقُ، فَفَتَحَتْ عينيها واغرورقتا بالدموعِ؛ لكنّـه – سـلمان الحـسن – لَحِظَ ذلك؛ فابتـسم ليـوزعَ بعـض الطمأنينـةِ علـيهما؛ وتوثـبَ للحديثِ؛ وتململ يعدل مـن جلـسته، ثُـمَّ استرسـل ضـاحكاً بصوتِ هادئ وَقَالَ:

- انتهت رحلتي يا علاء في البحث عن مشروع بالفشل!!

توردَ خدا خديجة وفتحت عينيها وشعرت أَنَّهُ استدراجٌ من زوجِهَا لابنها لفتحِ موضوعٍ للنقاشِ؛ والحقُّ هِيَ رغم أَنَّهَا اطمأنت في البدايةِ لَمْ تكن تتوقع أن تَمُر ليلتهم دُوْنَ أن تعصف رياحُ النقاش عَلَىْ صراعِ المبادئ. وَلَعَلَّ سلمان الحسن –بذكاء– أدركَ جزعها، فَنَظَرَ نَحْوَهَا يُطْمئنها قَائلاً:

- لأني أحبك أشعر أنني سأعيشُ مئة عام!!

ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ علاء وَقَالَ:

- كَانَ حلمي أن أحصل عَلَىْ مشروعٍ لأنني أشعرُ أنني لازلتُ أبحثُ عن مشروع؛ فلم أحصد غيرَ الحزن!!

ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ خديجة وَقَالَ متهدجاً دامع العينين:

- والجنون كَمَا يَظُنُ الجميع، لكنّي يا خديجة سعيدٌ بهذا الجنون!!

و أغمضَ عينيه وهَمَسَ:

- ما أحلى أن يجن طالب المشروع بالبحثِ عنه!!

وأردف:

- اذهب يا بني واستمتع ببقية ليلتك؛ فَقَدْ عافت نفسي الحديث وأرغبُ أن أنام باكراً؛ فغداً عندي عملٌ كثير!!

ثُمَّ تململ واستلقى عَلَىْ سريره وخرجا من عنده بانتظارِ صباحٍ جديدٍ وتركاه يتمتم، وكأنَّه يرتبُ هاتيكَ الأخيلة.....

كانت أيام مرض سلمان الحسن في مراحلها الأولى سوداءَ قاتمةً أوقعتهُ فريسةَ أوهامٍ وأخيلةٍ كثيرة وَلَعَلَّ فصله من البعثةِ الدراسيةِ – كَمَا ردَّها الطبيب المعالج - لَهَا دورٌ لا يستهان به بتردي حالته النفسية وإن احتفظ الطبيب باحتمالِ وجودِ تاريخٍ وراثي لهذه العلّة ورغم ذَلِكَ لَمْ تَخلُ سنوات مرضهِ من لحظاتِ صفاءٍ كانت تَغمرهُ بالارتياحِ وتعيد إِلَيْهِ ثقتهُ بنفسهِ؛ فيظهر ذَلِكَ عَلَىْ رجاحةٍ في القولِ وسدادٍ في الرأي، لكنّها لَمْ تكن تَصِلُ – لحظات الصفاء – إلى تقويمِ شخصيته وعودتها إلى الحياةِ بشكلٍ طبيعي.....

وَقَدْ فَشِلَ ابنه علاءُ في مساعدته عَلَىْ تَخَطي هذه الحالة لِمَا يتمتعُ والده بِهِ من ذكاءٍ، وَلَمْ تَصل ثقافةُ علاء إلى القوةِ التي من خلالِها يستطيعُ مجاراةَ والده في أي نقاشٍ وَلَعَلَّ تِلْكَ الحالة هِيَ التي دَفَعَت بِهِ إلى رغبةٍ جارفةٍ باقتناءِ الكتبِ؛ لكنّه كَانَ يفاجأ بأنَّ والده كَانَ ينهي قراءةَ الكتابِ الذي يشتريه قَبلهُ مِمَّا كَانَ يَشحذُ ذهنَ والده بصنوفٍ شتى من الكتبِ والمعارفِ، فكانت هذه الكتب رافداً مدَّ سلمان الحسن بثقافةٍ متواصلةٍ.

كَانَ وجه سلمان الحسن في تِلْكَ الليلة يفيض صفاءً ونقاءً ويظهر عَلَيْهِ الطمأنينة؛ فأغمضَ عينيه وَرَاْحَ يعزي نَفسه بإخفاقهِ في الدراسةِ وتساءلَ عن عددِ الذين يماثلونه فشلاً وَلَمْ يستطع اليأس أن يدخلَ إلى قلوبهم وعقولهم فلِمَ يكون هُوَ فريسة الجنون وغيره يَشُقُّ طريقاً جديداً في الحياة.....

هكذا جَلَسَ سلمانُ الحسن غارقاً في شأنِه ينتظرُ الصباحَ؛ لكنّه وَحِيْنَ انتصفَ الليل وسادَ الظلامُ المكان قَامَ وتَلمسَ طريقَه خارجاً نَحْوَ زاويةٍ في طرفِ حديقةِ البيتِ حَيْثُ أخفى صندوقاً خشبياً كَانَ قَدْ مَلأه بالترابِ وزرعَ فيه فسائلَ من شجرةِ الزيتونِ وتعهدها بالرعايةِ دُوْنَ أن يلحظَ أحدٌ ذَلِكَ حَتّى خديجة لَمْ تكترث لهذا الصندوق حِيْنَ كانت تراه؛ فَنَمَتْ تِلْكَ الفسائل واخضرت؛ ثُمَّ تحولت إلى شجيرات صغيرة.....

دنا سلمانُ الحسن من الشجيراتِ وَجَلَسَ القرفصاء قُبَالَةَ الصندوق ونظرَ بفرحٍ غامرٍ لدقائق، ثُمَّ سَمِعَ وقع أقدام يسيرُ خلفه ولمعت عيناه وَهُوَ يلوي عنقه إلى الخلف كانت خديجة تسيرُ ببطء وقلبها مضطرب لجلوسِه قُبَالَةَ الزاوية وَقَدْ أدارَ ظهره لباحة المنزل وتوجست خيفة وَهِيَ تسترقُ النظرَ شديدة

الحذر؛ فَتَبَسمَ وَهُوَ يَنْظُرُ نحوها وَقَدْ حَمَلَ الصندوق الخشبي بشجيراتِهِ ووقفَ قُبَالَتَهَا وابتسم ثانية؛ وَقَالَ:

- انظري يا خديجة لَقَدْ اخضرت شجيراتي الصغيرة!!.....

كانَ الليلُ يضفي عَلَىْ وجهِهَا البرونزي ونظرة عينيها وقوامها الممشوق سحراً لا يقاوم؛ فَرَاحَ يذكرُ عهده بِهَا قَبْلَ السفرِ وَهُوَ يحتضنُ هذا الجسد الذي ينضحُ جمالاً ورقةً واحتقنَ وجهه ولمعت عيناه وَرَاْحَ يستعيدُ فضائِلها في إفناءِ شبابِها ترعاه وابنه الذي شارفَ عَلَىْ إتمام دراستِه الجامعية؛ ومَهمَا يكن من الأمرِ شعرَ سلمانُ الحسن بأَنَّ الدم الذي يسير في شراينه هُوَ دمٌ جديدٌ وَلَمْ يكن يُفكرُ إلا في أمرٍ واحدٍ؛ فوضعَ الصندوق جانباً وأمسكَ بيدِهَا وسارا سوياً إلى غرفتِهِ.

نَظَرت خديجةُ إِلَيْهِ بعينِ الرضا وَهَبَطَ عَلَيْهَا بعض الخفر الممزوج بالحيرةِ والاستغرابِ وجعلت يده وَهِيَ تندسُّ في ضفيرتِها؛ فتميل برأسها نحوه، وكأنَّها تدخل في سرداب لطمأنينةٍ انتُزِعَت منها مِنْذُ سنين وكانت تحاولُ استرداد بقايا هذه الطمأنينة، لكن زوجها كَانَ يعيش أوهاماً وأخيلة سوداء؛ فطالَ بها الأمدُ وغلبها القنوط؛ فنسيت محاسن

جسدِها ونامت الأنثى فيها؛ لكنّه الليلة قَدْ أيقظ الأنثى فيها؛ فأقبلت عَلَىْ طاعته، ثُمَّ دلفت أمامه إلى غرفتهِ ووشى وجهها بالسرور وقلبها بالفرحِ وأسكرتها كلماتُ الحبِ التي أسمعها إياها؛ فطربت الأذن؛ وهدأت النفس؛ وناما كعصفورين في عشٍ واحد.....

صباحاً فتحت خديجة عينيها ترتسمُ الابتسامة عَلَىْ وجهها؛ فليلة الأمسِ كانت فتحاً جديداً للحياة وعهداً للحبِ والحنانِ. يسكرُ الفؤادُ وتطربُ الأذنُ وتثملُ الروحُ و يَهْدَأُ الخاطرُ وتكون الحياة أجمل ما تكون، لكنّها قفزت عن السرير كالملدوغة حِيْنَ تحسست السرير، فلم يكن زوجها إلى جانبها فَهَبَّت مسرعة إلى باحةِ الدارِ تبحثُ عنه فلم تجده؛ فهرولت نَحْوَ السلم الخشبي وتسلقته بمهارةٍ نَحْوَ السطحِ فلم تجده؛ فهبطت بتؤدة وتسمرت وسط الباحة حِيْنَ لَمْ تَرَ الصندوق الخشبي الذي كَانَ يحمله ليلةَ أمس؛ فخفقَ قلبها وتكدرَ خاطرها، لكنّها استعادت بعض لحظات السعادة من ليلة الأمس؛ فمشت نَحْوَ الحمام بزهوٍ؛ خطواتها متتابعة متلاحقة ترنو نَحْوَ ربيعٍ قادم.....

عند ضُحى ذاكَ اليوم وعلاء يفتحُ عينيه وعطر زهر البابونج المتدفق من نافذةِ غرفته يبعثُ نشاطاً دخلت خديجةُ بفنجانِ القهوةِ إلى علاء الذي لَمَحَ السعادةَ عَلَىْ قسماتِ وجهها النضرة فتفحصَها بنظرٍ ثاقبٍ؛ فرأى أن البؤسَ الذي كَانَ يلازم وجهها؛ وكأنه رَحَلَ وَحَلَّ مَحَلَّهُ فرحٌ وسعادةٌ لا تَخْفَيَان عن عين؛ فنالَ العجبُ من وجهِه؛ فَقَالَ يُمازحها:

- يا أرض احفظي ما عليك!!

فغلبتها العبرة وأقبلت تقبله بَيْنَ عينيه وتمسح عَلَىْ شعره؛ وقالت:

- يحفظك الله يا بني.

وأدارت وجهها لتخفي ابتسامة مطت بها شفتيها حِيْنَ ظنت أن علاء لا بدَّ أنَّه أدرك سِرَّ سعادتها؛ لكن عَادَ وتولاها كدر خفيف حِيْنَ سألها عن أبيه أمستيقظ هُوَ أم مازال نائماً؟

فقالت له:

- اشرب قهوتك أولاً وبعدها نتحدث!!

لكن صراخاً جعل قلب خديجة يخفقُ بشدة وَهَبَطَ الذعرُ عَلَىْ قلبِ علاء:

- يا خديجة تعالي وانظري ماذا يَفعلُ زوجكِ؟!

فهتف علاء:

- أبي !!

وخرج مسرعاً؛ فتلقاه صاحبُ الصراخِ وَقَالَ لَهُ:

- لَقَدْ اجتمعَ الناسُ حولَ أبيك يفعلُ ما يثيرُ الاستهجانَ في أرضكِم، فالحق به!!

لاحَ في عيني علاء اهتمام ويقظة عارمة وتولاهُ غضبٌ وَرَاْحَ يعدو كالمجنونِ نَحْوَ الجمعِ ولحقت بِهِ أمّه بتؤدة.

كانت خديجة تسيرُ بثقةٍ وثباتٍ وَقَدْ مَطَّتْ شفتيها بابتسامةٍ كبيرةٍ فَقَدْ تذكرت ليلة الأمسِ والشجيرات التي كَانَ يرعاها زوجها وأدركت أنَّه يزرعها ولم تكن تستهجنُ ذَلِكَ كباقي أهل البلدة؛ فَهُوَ – سلمان الحسن – وإن ألمَّ بِهِ عارض فَهِمَهُ الناسُ جنوناً؛ إلا أنّه لَمْ يزل يملكُ ذكاءً متوقداً لا يخبو.

حين وصلَ علاءُ كَانَ الجمع قَدْ اكتمل وسمعَ وقت وصوله أحدهم يقول:

- ما هذا الجنون؟ سلمان الحسن يقول: إنَّ هذهِ النبتة الصغيرة ستصبحُ يوماً شجرة كبيرة يستظلُ بِظِلِّهَا عشرون رجلاً.

وَقَالَ آخر:

- انظروا إليها إنها أقصر من سنبلةِ القمحِ!!

فردَّ آخر هازئاً:

- بَلْ هِيَ أقصرُ من عودِ شعيرٍ في عامٍ قحط!!

وقف سلمان الحسن وَلاحَتْ في عينيه نظرة ثقة وتحدٍّ وظفرٍ وأهملَ دهشةَ الناسِ وتقدمَ نحوهم وبيدِه آخر فسيلةٍ، فانحنى وَزَرَعَهَا وانكبَّ عَلَىْ الترابِ يهيله عَلَيْهَا برفقٍ، ثُمَّ سوَّاه عَلَىْ شكلِ دائرةٍ صغيرة وبدا حاسرَ الرأسِ متورد الخدين يغسلُ العرقُ ذوائبه وسارَ حَتّى تَوَسَّطَ الجمع؛ فتولى البعض قلقٌ وحيرة وجالَ بنظرِهِ عليهم جميعاً وكأنّه لمحَ من بعيدٍ خديجة تقترب؛ فمدَّ بصرهُ إليها، كأنَّه يدعوها للانضمام إلى الجمعِ، ثُمَّ بحثَ بنظرهِ حَتّى وَجَدَ علاء؛ فاطمأنَّ وَرَمَقَهُ بِنَظرةٍ حانيةٍ، ثُمَّ قَالَ بلهجةٍ جادةٍ وبلا تهدج يُحَدِّثُ الجميع:

- أنا سلمان الحسن من كَتَبَ رسائل زوجاتِكم إليكم وأنتم تعيشونَ في غرفِ الصفيحِ في (الكرنتينا) و (المصلخ) في بيروت!!

ثُمَّ جالَ بِنَظَرِهِ عَلَىْ الجمعِ ثانيةً:

- أعرفُ أن أرضنا تزرعُ بعلاً وأن زراعةَ شجرةِ زيتونٍ فيها ستكون محطَّ استهجان؛ فأنتم لَمْ تطوروا فهمكم للزراعةِ مِنْذُ مئات السنين!!

فَقَاطَعَهُ أحَدهم وَقَالَ:

- يا أخي نَحْنُ لا نُنكِرُ أنَّك كنت تَكتبُ رسائلَ الأهلِ إلينا ونحنُ نعمل في بيروت لكنَّنا نعرفُ أن الأرض البعل لا تكاد تكفي موسم قمح لعام واحد؛ فكيفَ تريدُ منَّا أن نزرعها زيتوناً؟!

فضحكَ مسترسلاً، ثُمَّ حَمَلَ فأسه وشقَّ طريقه عَبرَ الجمعِ بقلبٍ ملؤه التحدي والغبطة فالتقى بخديجة؛ فتأبطَ ذراعها وسارت جانبه ولم تجد ما تقول لكنّها كانت تحدث نفسها:

- وما عساي أن أقول لك يا سلمان ليتني أتقنُ الكلامَ مثلك وَكَمْ يضايقني ذلك؟

لكنّها لَمْ تكن تخفي فرحتها وَهِيَ تلقي برأسها فوق كتفِهِ وتترك لثقتها القديمة بِهِ تُكملُ الطريق.....

جاءت ساعة الأصيل وخديجة منشغلة بتجهيزِ حقيبةِ علاء، فقامت بِكَيٍّ وتَرتيبِ ملابسه ولم تَكن لتذهب عنها سماتُ الحزنِ التي تَهبطُ عَلَيْهَا وَهِيَ تجهزها كُلّ أسبوع مِنْذُ قُبِلَ في كلية الحقوق ولم تكن لتمتنع عن عادتها بدسٍّ بعض النقود في جيوب قمصانه دُوْنَ علمه وتلك عادة قَدْ ألفها من أمّه مِنْذُ سنتين لكنّها كانت منشغلة أيضاً بما أقدم عَلَيْهِ زوجها وَهِيَ خطوة لا يمكن الرجوع عنها وتساءلت بحرقة:

- تـرى هـل سـتبلغ حلـم زوجهـا وتـرى شـجيراته وَقَـدْ أصبحت أشجاراً وارفةَ الظلال؟!

و استولى عَلَيْهَا الحزن تبعه إحساس حـاد بالفرحـةِ وَوَثَبَـتْ تضعُ الحقيبةَ فوقَ الأريكةِ ومنَّت نفسها بقضاءِ ليلةٍ سعيدةٍ مَـعَ علاء قَبْلَ أن يمـطَّ القطـار صـفيره ويـذهب بـه إلى العاصـمةِ لأسبوعٍ كاملٍ.....

نشرَ الظلامُ رداءه عَلَىْ الطرقاتِ وأطبقَ الليلُ بـسكونه عَـلَىْ النيام؛ فَكَانَ سلمان الحسن ينتظرُ الهزيعَ الثاني حَتّى وثبَ شَبَحُه يقطعُ الطريق وبيده الفـأس وَقَطَـعَ الطريـق المظلـم إلى حَيْـثُ شجيراته تنام ليلتهـا الأولى بعيـداً عنـه واعـترى قلبـه خفقـانٌ عنيفٌ والتهب وجهه واحتقن بحدةٍ وتلـكَ سـمة تعتريـه كُلَّـمَا أصرَّ عَلَىْ شيء ما، فراحَ يخطو بَيْنَ شجيراته الصغيرة كـالمجنون مرةً يقيسُ المسافةَ غرباً، ثُمَّ شرقاً، فِكرهُ يعملُ نَظَرُهُ لا يستريح، ثُمَّ وقفَ وسطها – شجيراته – وهتف:

- يا الله... الغيث !!

ثُمَّ جرى فِكرهُ سريعاً وازداد انفعاله وقلقـه، فالفـأس بيـده واختيار المكان بحاجةٍ إلى درايةٍ أو هبةٍ من الله، فتشاغل بالـسيرِ حَتّى وصلَ طرف الشجيرات وجثا عَلَىْ ركبتيه وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ

السماءِ وَقَدْ امتلأت عيناه دموعاً وقناعة ورضا ونادى الله في سره أن أهدني إلى المكان وبكى.

وَهَبَّ سلمانُ واقفاً واضطرمت عواطفه وجاشت بالعبرة وسار متمهلاً حَتّى وصل إلى نقطة بَيْنَ الشجيرات ورفع فأسه وهتف وَهُوَ يهوي به يحفرُ الأرضَ:

- هنا يا رب !!!!.....

كان سلمان الحسن بوجهٍ يفيض بشراً ونوراً حِيْنَ بدأ بحفرِ البئر وتحول اضطرام عواطفه إلى طمأنينةٍ راسخةٍ مليئة بالخيرِ ويحدث نفسه ويمنِّيها بالعثورِ عَلَىْ الماء عَلَىْ أي عمقٍ ولو كَانَ يسيراً؛ فتلكَ الشجيرات بحاجةٍ إلى نصفِ عمرٍ آخر حَتّى تكتمل، لكن لَمْ يظهر الصباح حَتّى افتضح أمره وذاع الخبر بَيْنَ الناس أن سلمان الحسن يحفرُ بئراً في أرضه ولقيت الفكرة استهجاناً أعظم من غرسه للشجيرات، فاجتمع الناس حوله بَيْنَ ساخرٍ وهازئٍ وَبَيْنَ فضولي متطفل لا عمل له.

وقال أحدهم هازئاً يحدثُ الناس الذين تجمهروا حول حفرةِ البئر التي تجاوزت المترين:

- إن العمليةَ دقيقة !!!

وأردف وَقَدْ ارتسمت عَلَىْ فمه ابتسامةٌ شيطانيةٌ:

- ألا تلاحظون أن الدكتور سلمان يبذلُ جهداً لإنقاذِ حياةِ المريضِ؟!.....

لم يكن سلمان الحسن ليكترث لما يقولون، بَلْ تابع حفره للبئر بحيوية شابة متوثبة مليئة بنزعةٍ جامحةٍ إلى السيطرةِ عَلَىْ أعصابه فالبئر خليقةٌ بِأن يتحمل فيها أقذعَ الكلمات؛ وترك لِخَيَالِه تَصور المستقبل وشجيراته الصغيرة أصبحت وارفة الظلال، فلم يدَّخر جهداً واستمر بالحفرِ حَتّى أجبره الجوع عَلَىْ التقهقر؛ فَخَرَجَ من الحفرةِ وَقَدْ مُلئت نفسه غبطة للعمقِ الذي أنجزه في يومِه الأول.....

حين عَادَ سلمان الحسن إلى البيت كَانَ علاء قَدْ غادره باكراً وَقَدْ اطمأن عَلَىْ أن أباهُ يَجْلِسُ بَيْنَ شجيراتِه دُوْنَ أن يخطر لَهُ بالٌ بأنَّه يحفر بئراً لها، لكن خديجة استقبلته بفؤادٍ يخفقُ بعنفٍ وظهرت بوجهٍ حزين عَلَىْ زوجها الذي اعتراه تعبٌ شديدٌ، فتهالكَ عَلَىْ الكرسي الخشبي وأسرعت وأحضرت طستاً وراحت تدلك ساقيه بالماءِ الساخن وترنو إِلَيْهِ بنظرِها، ثُمَّ سألته:

- ماذا كنت تفعلُ هناك يا سلمان؟

لكنه لَمْ يجب، بَلْ كَانَ يستسلمُ لتدليكها بلذة؛ فأردفت:

- ما دمت قَدْ زرعت شجيراتك ما الذي كنت تفعله هناك؟!

ولاحَ القنوطُ عَلَىْ عينيها حِيْنَ لَمْ يجبها وتسربَ بعضُ الغيظِ إلى نفسِها، فراحت تقسو عَلَىْ ساقيه بتدليكها وكأنَّها تستحثه عَلَىْ التحدث؛ فَقَالَ بهدوء:

- أبحث عن الثروة التي كنت أحلم بها !!

توردَ وجه خديجة وخفقَ قلبها بخوفٍ وقالت:

- أتبحث عن الذهب يا سلمان؟!

ووقفت مذعورة وَقَدْ وضعت يدها عَلَىْ فمها؛ فَهَتَفَ خوفاً عليها:

- عَلَىْ رسلك يا خديجة أنا أبحث عن ما هُوَ أغلى من الذهبِ إنَّه الماء. أنا أحفرُ بئراً بَيْنَ شجيراتي لأروي عَطَشَهَا ما بالك أجننتِ؟!!

أنصتت خديجة بانتباه عميق وَقَدْ زادها الشرحُ اندهاشاً وإن بدا بعض السرور عَلَىْ وجهها، لكنّه سرور عابر ومؤقت، فقالت تستوضحه:

- أيمكنُ الوصول إلى الماءِ بالفأسِ يا سلمان؟!!

- أعتقد أن بئراً من عشرين متراً كفيلة بريِّ شجيراتي لسنوات!!

تورد وجهها واستبشرت خيراً، لكنّها عادت وسألته:

- وكيف سنستخرج الماء منها؟

فأطرق قليلاً حَتّى قَطَعَ الريب مسافةً إلى قلبِها، ثُمَّ قال:

- لا بد من أن نستخرجه بشكل بدائي!!.....

عند صباح الغد لَمْ يستطع سلمان الحسن الذهاب لمتابعةِ الحفر، فَقَدْ أنهَكَه التعب البارحة وَشَعَرَ بتصلبٍ هَبَطَ عَلَىْ أعضائِه؛ فلم يستطع مغادرة السرير وتولى خديجة الفزع عليه، لكنّه طمأنها أن الأمر لا يعدو إجهاداً لعضلات جسده وسيتعافى غداً وسيباشر الحفر.....

الليل أخفى بَيْنَ طياته ما هُوَ مرعب وخطير؛ فَقَدْ سَقَطَ سلمانُ بَيْنَ حيٍّ وميتٍ، فَهَرَعَتْ خديجة إِلَيْهِ تعاني يأساً مريراً وخوفاً أغلق منافذ التفكير عِنْدَهَا وراحت تبكي حظها بَعْدَ أن اعتقدت أنَّ لحظاتِ الصفاءِ التي لفّت سلمان بدت طويلة الأمد، فَقَدْ قَامَ بِزَرع الشجيرات وخطط لِحَفرِ بئر وَبَعَثَ هذا التحول في نفسها رغبة عارمة للحياة من جديد مَعَ رجلٍ أحبَّه قلبها وأخلصَ لَهُ سنوات مرضه وراحت تبحثُ عَنْ أملٍ وَهِيَ تحتضنه وتحدثه، لكنّه لَمْ يكن عَلَىْ وعي لما سيحدث، فتركته وخرجت إلى الشارع تستجدي مسعفاً لزوجها.

في اللحظات التي كَانَ يستردُ سلمان بها وعيه كَانَ يتساءل مرعوباً:

- هل أموت ؟!

لكنّه لَمْ يَكن يتلقى جواباً من أحد؛ فَقَدْ كانت زوجته تركضُ مذعورةً تبحثُ عن سيارةٍ عابرةٍ تنقله إلى المدينةِ التي تبعدُ أكثرَ من ثلاثين كيلو متراً، عَادَ وانكفأ عَلَىْ نَفسِه باكياً معتقداً أن خديجة نائمة وَلَنْ تسمعه، فعاشَ برعبٍ أن يموت وحيداً، لكنَّ روحه كانت تتمسكُ بالحياةِ وتجاهدُ في التمسك بأهدابها ومضت عَلَيْهِ دقائق مروعة تراءى لَهُ الموت عَلَىْ صورٍ غير واضحةِ الملامح وراحت روحه تسترجعُ صوراً من ماضيه، فدفعت به إلى يقظةٍ وقلقٍ؛ فَنَهَضَ عن سريره متثاقلاً يتكئ عَلَىْ الجدارِ ويتجه إلى باحةِ المنزلِ ومضت دقائق مشبعة بالسكونِ، بالصمتِ المخيفِ، واستغاثته لَمْ تلق جواباً. هَبَطَ جالساً عَلَىْ الكرسي الخشبي واعترته قشعريرة باردة؛ لسعت أطرافه وصدره فَرَاحَ في سعالٍ طويلٍ حَتّى غبشت الرؤية عينيه وتناثرت أمامهما صورٌ عَلَىْ شكلِ غيومٍ بيضاءَ تحولت إلى سوداءَ قاتمة تخللتها صورٌ غير منتظمة هلامية الملامح وَوَقَعَ مغشياً عَلَيْه.

دخلت خديجة أمام سائق السيارة العابرة إلى المنـزلِ بَعْـدَ أن لحظ لهفتها، فَوَافَقَ عَلَىْ نَقلِهِ إلى المشفى وما إن رأته مكوَّماً وسط الباحة حَتّى هرعت إِلَيْهِ راكضة ويغلبها البكاءُ والنشيجُ وحملته بمساعدةِ سائقِ السيارةِ وانطلقا به إلى المشفى.....

في الطريقِ أدخلهم الليلُ في ظلمةٍ حالكةٍ أيقظـت ذكريـات خديجة وَحَرَّكَ آلامَهَا وأشجانها واستسلمت لخواطرَ شتى، ثُـمَّ استدركت، فراحت تقرأ بعـضَ الأدعيـةِ وسُـوَراً قـصيرة مـن القرآن، لكنَّ سيلَ الخواطرِ عَاْدَ يَطرقُ رأسها من جديد، فبكت في صمتٍ وَهِيَ تَمسحُ عَلَىْ رأسِ زوجِهـا الـذي ارتفـعَ صـوت أنينه بشكلٍ زادَ ذعر خديجة عليـه، وَرَجَـتْ سـائقَ الـسيارةِ أن يسرعَ أكثر، فَلَمْ يُمانع، وَرَاْحَ يُـصارعُ الطريـقَ حَتّـى وصـلَ إلى المشفى وأُدخِلَ سلمان إلى غرفة الإسعاف.

شكرت خديجة السائق عَلَىْ معروفِهِ وارتمت عَلَىْ مِقعدٍ تبكي بصمت؛ وانطلقت الخواطرُ تهاجمها والذعرُ يتولاها من جديـد وتذكرت ابنها علاء وخافت أن يثبَ الموتُ، فَيَخْطِف زوجهـا، فَمَزَّقتها المخاوفُ وتحولَ الأملُ إلى قنوطٍ والـسعادةُ إلى شـقاءٍ؛ ولم تَعُدْ تَمْلُكُ إلا البكاء والانتظار.....

تَقَدَّمَ الطبيبُ مِنْهَا ونظرها متعلقٌ به وحياها وَعَلَىْ شفتيه ابتسامة تَشَي بخبرٍ مفرحٍ، فردت تحيته بأحسن منها وَهَبت واقفة مضطربة التفكير خائفة، يلوحُ عَلَىْ وجهها المُصفَرِّ عطشاً وقشعريرة تبحثُ عمّا يطفئ نارَ قلبها ويبعثُ بالدفءِ إلى أوصالِها.

لَحِظَ الطبيبُ القلقَ عَلَىْ وجه خديجة؛ فَأَشَار إلَيْهَا بالجلوسِ وطمأنها قائلاً:

- لا تخافي يا خديجة زوجك بخيرٍ وَقَدْ رجاني أن أطمئنك عَلَيْهِ فَلا تقلقي كُلّ ما في الأمر إرهاقٌ كبيرٌ ألمَّ بجسدِهِ وغداً صباحاً سَيَخرج مَعَكِ إلى البيتِ.

احتقنَ وجهها سعادةً واغرورقت عيناها بالعبرات؛ فراحت تتنفسُ بعمقٍ وجعلت تُتَابعُ الطبيب وَهُوَ يدلف إلى ممَرٍّ آخرَ وَتَرَكَهَا وَقَدْ استبدلَ قلبها الحيرةَ بالصفاءِ والخوفَ بالطمأنينةِ وتغيرَ وجهها الأبيض؛ فَرَاحَ يَشَيْ بالبِشرِ والنورِ وصارَ كُلّ شيءٍ يَطردُ مَلَلَ الانتظارِ وأمضت ليلتها غارقة في أخيلةٍ تترقبُ الصبحَ لتعودَ به إلى البيتِ وَكَانَ لَهَا ذلك.....

صباح اليوم التالي وَبَعْدَ أن اطمأن الطبيبُ عَلَىْ حالِ سلمان الحسن وَقَّعَ أمرِ مغادرته المشفى؛ فانطلقت بِهِ خديجة تَتَأَبَّطُ ذراعه إلى سوقِ المدينةِ؛ حَيْثُ دَبَّ النشاطُ في أركانه مترامية

الأطراف؛ وراحت وَهِيَ تضغط عَلَىْ يده وتُرغِبه بالسير في السوق وأغرته بشراءِ بعضِ الحاجيات بَعْدَ أن يتناولا إفطارهما في أَحَدِ المطاعمِ الشعبية المتناثرة عَلَىْ طولِ السوقِ.....

كَانَ السوقُ مَثَار ضجيج وجلبة عظيمين وتسربت منه رائحة زكية تنبعث من أحدِ المطاعم فدخلاه. كَانَ المطعم يقدم وجبات طعام شعبية نافذة الرائحة؛ فاتخذا ركناً بانتظار تجهيز وجبة الطعام؛ وَرَاْحَ سلمان الحسن يستعرض رفَّاً رتبت عَلَيْهِ علب بلاستيكية متساوية الحجم وباللون نفسه، فاحتلت مساحته كاملةً، وَمَدَّ نَظَرَهُ نَحْوَ الأعلى فرأى رفاً آخر رتبت عَلَيْهِ زجاجات كبيرة وصغيرة معبأةً بالزيت؛ فوقف وتناول إحداها وَرَاْحَ يتأملها عن قرب حَيْثُ وَشَىْ وجهه ببعض الفرحة وإن كَانَ التعب لا يزال يأخذُ منه نصيباً وافراً وَعَاْدَ يَجْلِسُ في مكانه غارقاً في أخيلته يترقب الوجبة.....

لاحظت خديجة ذلك، فكانت تراقبه بعينين ساهمتين ذابلتين؛ لكنهما جميلتان متوقدتان تبتسم لما جال في خاطرها وزوجها يَنْظُرُ إلى زجاجاتِ الزيت؛ فمنَّت النفسَ بيومٍ تستطيع أن تحصل عَلَىْ زيت وفير من شجيرات زوجها المزروعة حديثاً بالأمس القريب.

بَعْدَ وَجبة الإفطارِ غادرا المطعم؛ وَكَانَ سلمان الحسن غارقاً في أخيلتِهِ وأدهشته حركةُ الناسِ في السوقِ وكأنَّه لَمْ يلاحظ تِلْكَ الحركة وقتَ خروجِهِ من المشفى ودخوله إلى السوقِ. رغم ذَلِكَ لَمْ تكنْ ذات أهمية وليست بالخطر عليه؛ خصوصاً أنَّه رجلٌ لَهُ حياته الخاصة التي قضى آخر عشرين سنة منها منعزلاً عن الناسِ يستغرقُ في النوم نهاراً ومراقبة النجوم ليلاً؛ والحق أن ساعات الصفاءِ التي كانت تعتريه – و آخرها التي طالت - هِيَ وراء زراعة شجيرات الزيتون.....

وَقَفَ سلمان الحسن أمامَ أحدِ الدكاكين؛ وألقى نظرةً فاحصةً عَلَىْ محتوياتِه؛ وَلاحَتْ في عينيه نظرة ارتياح فَهَزَّ رأسه وكأنَّه ينفض عنه الغبار. كَانَ يستغرقُ في نظراتِهِ بأناة وصبر، ساعة صفاء غريبة؛ كأنَّها سماء صافية تعرض نفسها أمامه في يوم ربيعي، وَمَالَ برأسِه نَحْوَ خديجة وسَأَلَهَا:

- هَلْ مَعَكِ كفاية من النقودِ أريدُ شراءَ بعض الحاجيات؟

- نعم معي لكن ما هِيَ الحاجيات حَتّى أتبين الأمر؟

لم يجبها، بَلْ سَحَبَهَا من يَدِهَا، ودخلا الدكان وشعوره بالسرور واللذة يزدادان؛ وقوة جامحة راحت تظهر في عينيه،

فَهَبَّ البائعُ واقفاً يستقبلهما بَعْدَ أن كَانَ يَقْعُدُ عَلَىْ كرسي خشبي أمام الدكان.....

كَانَ البائعُ يُخفي تَحْتَ بنطالِه عجيزة كالقبةِ، وساقين عظيمتين بانتا من أسفلِ البنطالِ الذي قَصُرَ من تَزَايدِ وَتَراكم اللحم، سِمَاتُ وجهه واضحة، فَهُوَ ممتلئ الخدين برأسٍ كبيرٍ أصلعَ ورغم كلّ هذا الحجم فَقَدْ كَانَ يسيرُ في الدكانِ بخفةٍ ونشاطٍ يدورُ في أرجائِها كصغيرِ عصفورِ الدوري النَشِط.

وَقَالَ لَهُمَا مُرَحِّباً:

- أهلاً وسهلاً تفضلا.

كانا قَدْ وصلا وسط الدكان، فالتفت إِلَيْهِ سلمان الحسن، وَقَالَ له:

- أنا بِصَدَدِ حفرِ بئرٍ في أرضي وأريدُ... فَقَاطَعَهُ البائعُ بحذاقةٍ:

- أرجوكَ لا تُكمل لديَ كلّ طلباتك وتابع وَهُوَ يَعدُّ عَلَىْ أصابعه:

- أنت تريدُ حبلاً، وبكرة، وسطلاً لاستخراجِ التراب أولاً، ثُمَّ الماء لاحقاً !!

ابتسم سلمان الحسن وَهُوَ يَنْظُرُ إلى خديجة التي شاركته الابتسامة بينما رَاْحَ البائعُ بخفةٍ يصعدُ عَلَىْ سلمٍ ليلتقطَ رزمةَ

الحبلِ المعلقةِ عَلَىْ مشجبٍ أَعْلَى الرفِّ؛ ورمى به أمامهما، ثُمَّ دَرَجَ بخفةٍ نَحْوَ مشجبٍ آخرَ وأنزلَ بَكرتين حديديتين وهمَّ بإنزالِ خيطٍ ربطَ به عدداً من " أسطل " الماء، وخَطَا خطوتين ليحضرَ الكرسي الخشبي ووضعه أمام خديجة، وَقَالَ لها:

- اجلسي يا أختي أمامكم نصفُ ساعة حَتّى أنهي لكم طلباتكم!!

تجَّهم وجهُ سلمان الحسن، وَقَالَ له:

- لماذا أحضرت هذا الحبل الطويل وهذه البكرة الثانية و...

فَقَاطَعَهُ البائعُ ضَاحِكاً:

- سيدي أنا في خدمتك، أنا لا أعطيكَ إلا مَا هُوَ ضروري !!

وتَقَدَّمَ نَحْوَ الحبلِ؛ وَحَمَلَهُ، ثُمَّ قَالَ:

- هذا الحبل طوله خمسين متراً؛ فإن استخدمت مِنه نِصفَهُ بقي النصف الآخر كَحَبْلٍ احتياطي فربَّما انقطعَ الحبلُ أو أصابَه بعض الاهتراء؛ عِنْدَهَا سَتَجِدُ النصف الآخر في منزلك!!

ثُمَّ رَمَىْ به جانباً وتناول البكرة، فبانت عجيزته أضخم مِمَّا بدت عليه، وَقَالَ:

- وهذه البكرة قَدْ تتعطل أو تكسر أو – وَهُوَ يغمز بعينه - تسرق لا قدَّر الله وقِس عَلَىْ ذلك؛ " فالسطل " قَدْ يُثقَب أو يهوي مَعَ الحبل المقطوع.

بدا كلامه مقنعاً، فأومأَ سلمان بالموافقة، ثُمَّ استدركَ وَقَالَ:

- مَعَكَ حَق.

فابتسمَ البائعُ وَهُوَ يديرُ ظهره يَهمُّ بالخروجِ من الدكانِ، فناداه سلمان الحسن:

- إلى أين أنت ذاهب نريدُ أن نمشي !

التفت البائع إِلَيْهِ بعينين بشوشتين، وَقَالَ له:

- أرجوكَ يا سيدي لا تتعجل الرحيل لَنْ تخرج من عندي؛ إلا وجميع حاجياتك بحوزتك !!

ثُمَّ صَفَّقَ بيديه وأشار بسبابته نَحْوَ سلمان الحسن وَقَالَ:

- ألست بحاجةٍ إلى ما يحملُ البكرة فوق البئر؟

نَظَرَ سلمان الحسن نظرة متفحصة نَحْوَ البائع؛ وكأَنَّه ينتظر جواباً من البائعِ نفسه، ثُمَّ هَزَّ برأسِهِ عِنْدَهَا قَال البائعُ:

- سأحضر لَك خشباً ومسامير لصنع هيكلٍ يَحملُ البكرة !!

راقت الفكرة إلى سلمان الحسن واحتقنَ وجهه فرحاً، وَنَظَرَ نَحْوَ خديجة التي وقفت بَعْدَ أن غادر البائع لإحضار الخشب، وقالت لزوجها:

- قَدْ لا تكفي النقود التي أحملها ثمناً لكل تِلْكَ الحاجيات !!

وأردفت:

- كَمَا أنني لَمْ أشترِ شيئاً من حاجيات البيت يا سلمان!!.....

هَبَطَ الحزن عَلَىْ سلمان الحسن وَهُوَ يَنْظُرُ إليها تِلْكَ النظرات الجميلة المحملة بالخضوع الكلي، فَقَدْ كَانَت لحظات الصفاء التي تنتابه – كتلك التي يعيشها الآن – تجتاحه رغبة عارمة بالبحثِ عن جناحٍ يظلّله ويدفئ عَلَيْهِ دنياه، رغبة في البحثِ عمَّن يرعاه كصغيرِ الحمامِ ينتظر أمّه وَهِيَ تعود محلقة مَعَ السرب لتحط في عشها وتطعمه الحَبَّ الذي التقطته وتخبئة تحت جناحيها.

أطرقَ وحملقَ في الأرضِ بعينين ذابلتين وَرَاْحَ يَهزُّ رأسه، ثُمَّ دخل البائع يحمل الخشب فوق كتفه ورمى به أمامَ الدكان، لكنّه لحظ شرود سلمان الحسن وتعكر مزاجه، فمازحه قائلاً:

- ما بالك يا رجل أنت تبحث عن الماء والماء خير، فَلِمَ التجهم والحزن؟!

جفت الغصة في حلقه ولم يجب، فَنَظَرَ البائعُ إلى خديجة وَقَالَ لها:

- ما بال زوجك يا أختي أراه متكدراً ؟

فقالت خديجة:

- هذه الأغراض كثيرة وَقَدْ لا نملك كامل ثمنها....

فقاطعها ضاحكاً:

- أهذا كل شيء؟!!

ثُمَّ هَزَّ رأسه وَنَظَرَ نَحْوَ سلمان وَرَفَعَ سبابته في وجه سلمان وَنَظَرَ في عينيه ملياً، ثُمَّ قال:

- خذوا ما تريدون وعند زيارتكم المدينة ثانية تسددون بقية الثمن أنتم القرويون أصحاب أمانة.....

خَرَجَ سلمان الحسن من حزنِهِ وغادرت من عينيه الصافيتين سيما الكدر وَنَظَرَ نَحْوَ البائع وشكره ووعده بسدادِ بقية الثمن قريباً وغادرا يحملان حاجياتهم ولم يجدا مشقة في العثور عَلَىْ حمَّالٍ بالأجرةِ حَتّى وصلا مركز انطلاق الحافلات.....

صباح اليوم التالي استيقظَ أهلُ القريةِ عَلَىْ صَخَبٍ وضوضاء فَقَدْ اجتمعَ الناسُ حولَ سلمان الحسن وخديجة وهم يتابعان حفرَ البئر بمهارةٍ وهمَّة عالية وتوثبا لإنهائها سريعاً. وَكَانَ سلمان الحسن خلالَ عملهما سوياً يطالعها بوجهٍ وديعٍ ملؤه التوجع عَلَيْهَا وربَّما لحظت هِيَ ذلك؛ فارتاحت وتوثبت للعملِ أكثر وشعرت بأنَّ الحياةَ ستكونُ أقوى بالمشاركة ولم يكن يداخلها شَكٌّ بِمَا يخطط لَهُ زوجها؛ فهجرت بيتها؛ وأهملت نفسها؛ واستمرت معه بالعمل لخمسة أيام تتناوب معه عَلَىْ الحفرِ تارة وعلى نقلِ الترابِ من الحفرة التي ازداد عمقها عَلَىْ العشرين متراً.....

في مساءِ اليوم السادس وسلمان يحفرَ قاعَ البئر لَحِظَ ما يفرحُ القلبَ ويسعدُ الخاطرَ؛ فَقَدْ ازدادَ الترابُ رطوبةً واكتسى ملمسه دفئاً سخياً، فتهيأَ للخير ونفسه تَكَادُ تَطيرُ من الفرحةِ لكن التعب قَدْ نَالَ منه ما لا يستطيع معه المتابعة، فَقَفِلَ راجعاً مَعَ زوجته إلى المنزلِ بانتظارِ صباح الغد.

وفي الطريق نظرت نَحوهُ وَرَمَتْ بيدها قرب يده وَقَالَت:

- خذ يدي !!

فابتسم لَهَا ابتسامة متعبة وضمَّ أصابعَ يدها بَيْنَ أصابعِ يده وضغطَ عَلَيْهَا بلطف وسارا جنباً إلى جنب وحدثتها نفسها بالأملِ ومنّتها بالخيرِ الوفيرِ، فتنهدت وحمدت الله في سرها وبقيت حالمة مطمئنة حَتّى ولجا البيت سوياً.....

صباح اليوم التالي وسلمان الحسن يجدُّ في المسير لَمْ يكن يعلمُ أن هذا الصباح سيكون مختلفاً، فَهُوَ ليسَ بعرسٍ لأحد الأغنياء الذين باعوا أرضهم وراحوا يتنعمون بثمنها، وليس بيومٍ لاستقبالِ مسافرٍ ملَّ الغربة وَعَادَ إلى الوطنِ يحملُ من الهدايا أكثر مِمَّا يحمل من الأخبار، فَلَقَدْ فوجئ بالصبيةِ الصغار ممن لَمْ يسمح عمرهم بالذهابِ إلى المدرسة بَعْدُ يجتمعون ويتحلقون حولَ فتحةِ البئرِ يقذفونَ بالأحجارِ داخلها، فصرخَ بِهِم:

- ها يا أولاد هيا انصرفوا من هنا ابقوا بعيداً كَيْ لا يسقطَ أحدكم فيها!!

لكنَّ الصبية لَمْ ينصرفوا؛ بَلْ راحوا يتابعون مرحهم بينما ازدادَ قلقُ سلمان الحسن مخافةَ أن يقعَ طفلٌ ما في البئر لِذلِكَ لَمْ يَجدْ نفسه إلا وَهُوَ يركضُ باتجاههم يلوح بيده؛ فتفرقوا لكن بقوا قريباً منه يترقبون غفلته ليعودوا إلى مرحهم.

اقتربَ سلمان الحسن من فوهةِ البئرِ وَنَظَرَ فيها، أجفلَ قليلاً، ثُمَّ هَبَطَ عَلَيْهِ صمتٌ مرعبٌ وبقي عنقه مشدوداً نَحْوَ الأسفلِ فاتحاً فَمه، وبدا رأسه كقطعةٍ من رخام صلبة.

لم يكن يصدق ما رآه حقاً، فَقَدْ كَانَ يَرَى نفسه وكأَنَّه يَنْظُرُ في مرآة، فحركَ رأسه قليلاً، ثُمَّ حركَ يده اليمنى، وحركَ الأخرى كَانَ المشهد مرعباً، فَقَدْ ارتفعَ الماءُ في البئرِ وبانَ بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ.....

هذه البرهة كانت نقطة فاصلة استمر فيها الصمتُ يلفُّ المكان، ثُمَّ اعتدل وغطى وجهه بيديه وسَمِعَهُ الأطفالُ يبكي؛ نعم كَانَ يبكي تضرعاً، ثُمَّ جَثَا عَلَىْ ركبتيه، وحاول أن ينتزعَ نفسه من البكاءِ، لكنّه عَادَ ليتحولَ بكاؤه إلى نوعٍ من الصراخِ، فَقَدْ تَمَلَّكَتهُ حمى الجنون، ولم يَعُدْ يشعرُ بالعالمِ من حولِهِ.

غَاصَ نَظَرُهُ نَحْوَ البعيد ككتلةٍ من الضبابِ الأحمرِ؛ يـصرخُ؛ يبكي؛ يركضُ؛ يرقصُ؛ وخيلَ إِلَيْهِ أَنَّه يهـربُ مـن العـالمِ؛ مـن الكونِ؛ وبقي عَلَىْ وضعِهِ هذا حَتّى اجتمع الناس عَلَىْ صراخِه، ثُمَّ بَدَا عاجزاً عن الكلامِ عـاجزاً عـن التفكـيرِ، والكـل يَقِـفُ وينظرُ إليه؛ دُوْنَ أن يلتفتَ أحدٌ ما إلى البئرِ حَتّى الأطفال الذين كانوا ينتظرون غفلته ليعودوا إلى مرحهم نسوا الماءَ في قعرِ البئرِ وراحوا يراقبونَه باهتمام.

فجأةً أحسَّ ببعضِ الهدوءِ والنسمات الباردة تلـسعُ وجهـه، فانتبه لنفسه يقفُ بَيْنَ الناسِ؛ كأَنَّه قادمُ علـيهم مـن عـالمٍ آخـرَ وحاولَ أن يستعيد مـا حـصل؛ فكانـت الـصورُ تـأتي متزاحمـة متتابعة؛ كأنَّها أسرابُ فراشٍ في يومٍ دافئ.....

كانت خديجة تحثُّ الخطا عَلَىْ الطريـقِ تتجـه نَحْـوَ الجمهـرة وشقَّت الصفوفَ نَحْوَ سلمان الذي افترت عن شفتيه ابتـسامة، وأشار بسبابته نَحْوَ البئر، فاندفعت نَحْوَهَا؛ وقلبها يعيشُ دوامةً لخاطرٍ مَرَّ عَلَىْ بالِها خائفةً أن يكون أَحَدُ الأطفـالِ قَـدْ سـقطَ في البئرِ قَبْلَ إتمامها؛ ونظرت فيها، فشاعَ الصمتُ من جديدٍ كالمرةِ السابقةِ، وبدأ الناسُ يتهامسون ويتبادلون نظرات التساؤل، ثُمَّ انفجرت خديجة ضاحكة وركضت نَحْوَ سلمان تعانقه وتشابكُ يديها بيديه ويدوران حولَ البئرِ بفرحٍ.....

اقتربَ الناسُ من البئرِ؛ فألجمت المفاجأة عقولهم حِـيْنَ رأوا الماءَ فيها، فانكفؤوا نَحْـوَ سـلمان الحـسن ونظـروا إِلَيْـهِ بوجـلٍ واحترام كبيرين، ثُـمَّ انـشغل بتجهيـزِ الهيكـلِ الخـشبي الـذي سيحملُ البكرةَ بشكلٍ نهائي؛ وثبتـه جيـداً وربـطَ بِـهِ الـسطل ورمى بِهِ أسفلَ البئر، فَسُمِعَ صوت ارتطامِهِ بالماءِ وبدأ يـسحبُ الحبلَ ويصبُّ الماءَ عَلَىْ شجيراتِه الصغيرة؛ فرحةً لَمْ يكـنْ يقـدِّر روعتهـا أحـد أكثـر مـن سـلمان الحـسن وزوجتـه خديجـة إلا شجيرات الزيتون نفسها فَقَدْ كانت تتمايل فرحاً وتمنَّـي نفـسها بالصمود أمام الريح القادمة.....

ليلاً جلسَ سلمانُ الحسن غارقاً في أخيلته وعِنـدَمَا انتـصفَ الليلُ واطمأن عَلَىْ خديجة التي غطَّـت بنـومٍ عميـقٍ مـن تعـب الأيام السابقة نهضَ قائماً وتلمسَ طريقَه نَحْـوَ الـسلمِ الخـشبي وبخفةِ بهلوانٍ رَاْحَ يَصعدُ عَلَيْهِ خطوةً وراءَ خطوة حَتّى ارتقـى السطح، ثُمَّ مَدَّ خطاه في المسيرِ وَوَقَـفَ جانـبَ سريـره يرقـب نجوم السماء.

كانت الظلمةُ حالكة مطبقة مِمَّا سَمَحَ لَهُ رؤيـة النجـوم التـي تشعُّ بشكلِ أكبر ولم تكن بعض الإضاءة الـصادرة عـن بعـضِ

البيوتِ لتخفي بريقَ إشعاعِها؛ فكانـت عينـا سـلمان تلتقطـانِ إشعاعها باحتراف سائل. وجعلَ يُرَدِّدُ هَمـساً عـدداً وراء عـدد ويغرق في التقاط أشعة النجمة التالية حَتّى بدا لَهُ صورة دخـان بعيدة، دخان يتزامن مَعَ صفيرٍ حادٍ يشبه صفيرَ القطارِ؛ بَلْ هُـوَ صفير قطار، ورأى امرأتين أحداهما خديجة لكن بدت فتية جداً والأخرى عجوز هِيَ أمّه تقفان مودعتان ويسمعُ أمّه تقول:

- " يما... حبيبي اركب بالقطار أجرته أرخص ولا تـصرف إلا عَلَىْ قدك وإذا علمت أن مكروهاً قَدْ أصابني، فلا تجزع كلنا سنموت يوماً المهم أن تعود طبيباً يا سلمان !!! "

- " يـما يـا سـلمان الحكومـة أحـسن مـن إخوانـك، لأنهـا ستصرف عليك حَتّـى تـصير دكتـوراً؛ كـل واحـد لاف حالـه بحضن مرتو مثل الكلــ.... "....

يوم الخميس؛ استيقظَ علاءُ من نومِهِ باكراً حَيْثُ يسكن مَعَ زملائِه في دارٍ داومَ صاحبها عَلَىْ تأجيرها للطلبة فقط، فَهُوَ كَـمَا أخبر الطلاب - حِيْنَ يجتمع بهم أولَ الـشهر لاسـتلامِ الأجـرةِ مقدماً – قَدْ لُسِعَ كثيراً من بعـضِ المـستأجرين الـذين رفـضوا إخلاء المنزل دُوْنَ دفع (فروغ) لِـذلِكَ حوَّلـه إلى منـزلٍ يُـؤجَّر للطلابِ فقط، وحصراً كَانَ يختارُ الطلابَ القادمينَ من الريفِ،

فَهُوَ يطمئنُ إلى أنَّهم لا بُدَّ يوماً يغادرون عائدين إلى قراهم بَعْدَ الانتهاءِ من دراستِهِم الجامعية.....

يقعُ المنزلَ عَلَىْ تقاطعِ طرقٍ هامة، فَهُوَ يشرفُ غرباً عَلَىْ شارع "مخيم اليرموك "، وخلفه يقعُ شارع " مخيمِ فلسطين "، ثُمَّ يلتقي الشارعان ليشكلا دواراً يتفرعُ عنّه ثلاث طرقٍ رئيسة أوسعها الطريقُ المتجهةُ إلى حي " التضامنِ "، ثُمَّ المتجهة إلى "مساكنِ الزاهرةِ "، فقلب المدينة، والمتجهة نَحْوَ " البوابة "، "فالقدمِ " خارجها.

والمنزلُ مستطيلٌ واسعةٌ غرفه باستثناءِ غرفةِ علاء ويحتوي عَلَىْ فتحةٍ سماويةٍ واسعة لا تتوفر بالبناء الطابقي وله بابٌ خشبيٌّ قديمٌ لَمْ يغلق مِنْذُ سنوات لكثرةِ الطلاب الداخلين والخارجين منه وإليه؛ يخفي خلفه مرحاض قلَّ من لا يعرفه لأنَّه تحولَ إلى مرحاضٍ عمومي.....

أمَّا غرفةُ علاء، فَهِيَ حجرةٌ صغيرةٌ بسريرين بينما الغرفُ الباقية كانت بأربعةِ أسرة اقتسمها مَعَ زميلٍ لَهُ درسَ الصيدلة من حلب، وَكَانَ وقتذاك في السنةِ الأخيرةِ غادرَ بعدها عائداً واحتل مكانَه زميله خليل الذي يدرسُ اللغةَ الإنكليزية وَقَدْ كانت الغرفة مؤثثة بشكلٍ بسيطٍ زادَ المؤجر عَلَىْ السريرين

خزانة قديمة ببابين، وبراد صغير؛ بينما اجتمعت كل الغرف عَلَىْ استخدام مطبخ واحد؛ لكنّه واسع وحمامين متواضعين.

وبما أن اليوم هُوَ الخميس فَقَدْ نشطَ الطلبةُ يجهزون أنفسهم لمغادرةِ العاصمة إلى قراهم ليقضوا يوم الجمعة بصحبةِ أهلهم وأصدقائهم. ولم يكن علاء ليختلف عنهم، فَقَدْ حزمَ حقيبته وقررَ أن يعودَ ليأخذها قَبْلَ انطلاق رحلة القطار.

عِنْدَمَا همَّ علاءُ بالخروجِ من غرفتِه باغته صاحب المنزل بالوقوفِ وسط فنائه الواسع والطلبة يجمعونَ لَهُ الأجرةَ الشهريةَ، فانكفأ عائداً نَحْوَ زميلِهِ خليل، فأخذَ منه مئة ليرة وأخرجَ من جيبه مئة أخرى ودسَّها في يدِ صاحب المنزل أجرة الشهر القادم - والتي تدفع مقدماً - وغادر؛ ولم تمضِ ثوانٍ حَتّى وَجَدَ نفسه عَلَىْ شارع " مخيم اليرموك " ينتظرُ حافلةَ النقلِ الداخلي كغيره من الآلاف الذين انطلقوا صباحاً؛ العمالُ إلى معاملهم والموظفون إلى مكاتبهم والطلابُ إلى جامعاتِهم يملؤون الشارعَ بأحاديث مختلفة.....

كان أمامه أربع فتيات يسرن عَلَىْ مهلٍ وتؤدة؛ يتحدثنَ فيما بينهن؛ وَربَّما لقربِ المسافةِ منهن رَاْحَ صوت إحداهن يصل إِلَيْهِ ولعلّه بحبِّ الفضول عِنْدَ الشباب أصغى باهتمامٍ لما يدورُ بينهن من حديث؛ فَسَمِعَهَا تقول:

- أنا لَمْ أقبل به حِيْنَ تقدمَ لخطبتي !

فردت عَلَيْهَا الأخرى قائلةً:

- وكيف كَانَ وقعُ الخبرِ عَلَىْ نفسه؟

ضحكت الفتيات مجتمعات؛ فوصلَ صوتهن إلى أذنيْهِ؛ فأخفى سروراً بَانَ عَلَىْ وجهه، بَلْ جَعَلَ يستحثُّ الخطا علَّه يجتازهن ليسرقَ نظرة من وجوههن، لكنّه أحجمَ وخَفَّفَ الخطا حِيْنَ سَمِعَ إحداهن تسألُ:

- ماذا لو عَاودَ التقدم إلى خطبتكِ ثانية ؟

فمالت برأسها ضاحكة وَهِيَ تدير وجهها نحوها، فلمحها علاء، فَبَدَت لَهُ بغايةِ الجمال بشرةٌ عاجيةٌ صافيةٌ وعينان سوداوان وشعرٌ أسودٌ لامعٌ يصلُ لآخرِ ظهرها ترتدي لباساً جامعياً احتوى جسداً أهيفَ يمتلئ شباباً ونظارة، ثُمَّ قالت:

- أنا لا أبحثُ عن المالِ، فوالدي أغنى من والده لكنّي أبحثُ عن حبيبٍ يؤمن بمساواةِ الرجلِ مَعَ المرأةِ.

اضطربت نفسُ علاء وبانَ ذَلِكَ عَلَىْ وجهه، فَهُوَ وإن كَانَ طالباً جامعياً يدرسُ الحقوقَ شابٌ ذو خلق ودين لكنّه قَدْ نشأ في بيئة أقرب إلى البداوة منها إلى التمدن، فلزمَ فكرةَ أنَّ المرأة مَهْمَا بَلَغَتْ ستبقى دُوْنَ الرجلِ، وَقَدْ بَانَ ذَلِكَ من خلالِ صحبته لزملائه الذين وَجَدَ بينهم مَنْ يناصرُ فكرته وَمَنْ يرفضها.

واستمرَ علاء – دُوْنَ أن يدري – يسيرُ خلفهنَّ وَقَدْ تجاوزَ موقف الحافلات وَحِيْنَ انتبه مَنّى النفس بالتوقفِ عَلَىْ موقف آخر ولم يغب عن ذهنِه الذي لازم تفحصِ قاماتِ الفتياتِ الأربع ورافق ذاك شعورٌ بشهوةٍ عارضة أقربُ منها إلى الغبطة، فتابعَ سيرَه مشغوفاً وَرَاْحَ يَنْظُرُ إلى الحافلات المتوقفة؛ فيعرض عنها يَوَدُّ لو يسير خلفهنَّ إلى حَيْثُ يردن.....

وصلت الفتيات إلى أولِ شارع " الزاهرة القديم " وتوقفن بَعْدَ أن اعترضَ شابٌ طريقهنَ ووقفَ بأدبٍ جمٍ أمامهن وَمَدَّ ذراعيه يومئ لهن بالتوقفِ، فوقفن بينما راحت بعض الضحكات المخنوقة تصدرُ عنهن؛ كَانَ الشاب متأنقاً عريض المنكبين رياضي الملامح ذا عينين عسليتين وشعر خرنوبي ضارب نَحْوَ الصُفرة في بعضِ خصلاته، يرتدي بدلة رمادية اللون وربطة عنق موشاة بورودٍ حمراءَ وزرقاءَ ولبث يَنْظُرُ إلى إحداهن وَكَانَ واضحاً لعلاء الذي توقف بالقرب منهم ومعرضاً للتمويه أنَّه الشاب الذي كانت الفتاة تتحدث عن رفضها لَهُ، ثُمَّ قال لَهَا متسائلاً:

- هدى... هَلْ لي أن أعرف سبب رفضك لي؟

ومضت فترة سكون وصمت، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ:

- لا تكبلني بأفكارِكَ يا مازن أنت لا تؤمنُ بمساواةِ الرجلِ مَعَ المرأةِ وهذا لا يناسبني؟

- ومن قال لك إنَّني لا أؤمن بذلك ؟

ثُمَّ أدارَ وجهه باتجاهِ إحدى الفتيات اللواتي كن يخفينَ ضحكاتٍ تثيرُ امتعاظَ مازن وَقَالَ:

- ألأنني طلبت منك البقاء في البيت بَعْدَ تخرجك من الجامعة أكون غير مؤمن بمساواة الرجل مَعَ المرأة؟!!!

- نعم إنَّ المرأة هِيَ نصفُ المجتمع ووظيفتها أن تحملَ عَلَىْ كاهلها هذا النصف!!

انتظر علاء يستمع إلى حديثهم وَقَدْ زادَ من فضولِه، فَرَاحَ يقتربُ منهم بينما سمعَ مازن يقول:

- أعرف يا هدى أن المرأةَ هِيَ شريك الرجلِ في كلِّ أمورِ الحياة لكن ما هُوَ حال كثير من الزوجات اللواتي يلجأن إلى مربيات يشرفن عَلَىْ تربية أطفالهن أثناءَ غياب الأبوين عن البيت؟

فردت هازئة:

- أرأيت ها أنت تنكشف أمامي عَلَىْ حقيقتك ثانيةً، تريـدني خادمةً لك ولأولادك أليس كذلك؟

- ومن قالَ لكِ إنّني أريدُك خادمة أنا أريـدُك أمـيرة تـسكنُ في قلبي تقومُ عَلَىْ رعايةِ أطفالنا..... !!!

و أردف:

- أنا وأنت!!

لاحَ بعض الزهو عَلَىْ وجهِها حِيْنَ ذَكَرَ كلمةَ أميرة، فباغتت زميلاتها بابتسامةٍ وَشَىْ بها طرف ثغرها، لكنّها أعرضت جانبـاً ومشت وتبعنها الفتيات، لكن مازن انعطفَ واعترضَ طريقهن ثانيةً، وَقَالَ لَهَا منفعلاً:

- اسمعي لَنْ يتزوجك غيري أفهمت!!!

لم تلقِ بالاً لِما قال، بَلْ رَاْحَ ثغرها يشي بابتـسامةٍ ثانيـةٍ وَهِـيَ تنظر جانباً، فوقعَ نظرها عَلَىْ نَظَرِ علاء الذي كَـانَ مـشدوداً إلى الحديثِ، فَتَجَهَّمَ وجهها ولاحظَ مـازن ذلـك، فَظَـنَّ أن عـلاء يتحرشَ بها، فاندفع نَحْوَ علاء وأمسكَ بطرفِ قميصهِ وجذبـه إِلَيْهِ بشدة، فانـدفع عـلاء يـدافعُ عـن نفـسِه ودفعـه وكـادا أن ينخرطـا في شـجارٍ كبـيرٍ لـولا تـدخل بعـض المـارة، وفـضوا اشتباكهم وَقَالَ علاء:

- لماذا تدفعني بهذا الشكل ألتثبت لَهَا أنكَ رجلٌ تدافعُ عنها؟

فتلبست وجه مـازن الـضارب للبيـاض صـورٌ ملتهبـة وزمجرَ قائلاً:

- أنا رجل قَبْلَ أن أراك!!

فضحك علاء وَقَالَ لَهُ بهدوء:

- اقترب يا مازن سأقول لك شيء !!

انتفض مازن مستغرباً، ثُمَّ حملق بعـلاء وتطـايرَ الـشرر مـن عينيه؛ وَقَالَ:

- وتعرف اسمي أيضاً.

- اقترب لا تخف !!

اقتربَ مازن من علاء مرتاباً وَحِيْنَ صارَ بمواجهتِهِ مَدَّ علاءُ يده وأمسك ساعده، فأجفلَ أولاً، ثُمَّ اقتربَ فَقَالَ لَهُ علاء:

- أنت أحمق !!

فحملقَ مازنُ بعينينِ محمرتين وتهيأ للـشرِّ، لكـنَّ عـلاء عَـاْدَ وغمزَ بعينه وَهُوَ يقتربُ من أذن مازن وَقَالَ:

- أنتَ أحمقُ ألا تغضبُ لكرامتك يا صديقي مـا دامـت قَـدْ رفضتك حِيْنَ تقدمت لخطبتها، فأظهر أنّكَ غـير مبـال بهـا ولا

بجمالها وافتعل أنَّكَ وجدت من هِيَ أجمل منها عِنْدَهَا ستركض وراءك!!

صمت مازن وَرَاْحَ يفكر ويتساءل في نفسِه:

- ترى كيف عرف بحكايتِه مَعَ هدى؟

فاعتقد – مدفوعاً بنارِ الغيرةِ – أنَّ علاء يعرفها أو يعرفُ عنها شيء؛ فندَّت عنه شهقة وتصلبت قسمات وجهه، ثُمَّ دفع بعلاء جانباً واتخذَ طريقه مسرعاً.....

كانت الفتيات الأربع يراقبن ما دار بَيْنَ علاء ومازن باهتمامٍ، لكن مَا أذهلَ هدى أنَّها لَمْ تسمع بِمَا دارَ بينهما من حديثٍ وارتابت من انطلاقِ مازن لا يلوي عَلَىْ شيءٍ بَعْدَ أن هَمَسَ بأذنِهِ هذا الشاب، فراحت ترسلُ عَلَيْهِ نظرات متسائلة وتغيرت ملامحُ زهوها أمام زميلاتها واندفعت حمى الخواطرِ تتخيلُ ما دارَ بينهما وَحِيْنَ لَمْ تبرد نار توجِّسها تقدمت نحوه وتبعتها زميلاتها؛ وخواطرها ما زالت تتواردُ حادة نارية جنونية ووقفت أمامه؛ وقالت له:

- ها أنت ... ماذا قلت له؟

ارتعشت أطرافه برهة، ثُمَّ تمالكَ نفسه وَنَظَرَ إليها هازئاً، فحملقت به، فلم يغير من ابتسامته الهازئة، ثُمَّ لاحت في عينيها

نظرةٌ ملؤها الوعيـدُ والـشرُ؛ مـا لبثـت أن تغـيرت وتراجعـت ملامـحُ وجههـا وراحـت تتأملـه بانكـسارٍ ولحـظ هُـوَ ذلـك، فغادرَها حَتّى لا يسرفُ في رؤيـةِ انكـسارِها، وصـادفَ مـرور سيارة أجرة، فاستقلها رغـمَ أنَّـه اعتـاد الركـوب في حـافلاتِ النقلِ الداخلي، وتركها تقف بَيْنَ رفيقاتهـا مذعنـة قَـدْ اختفـت ملامـح الزهـو والغبطـة في وجههـا وَرَاْحَ يجـيش بخاطرِهِـا وتتساءل عمَّا دارَ بينهما من حديث وتولاها الوجوم بقية الطريق وأحست بأنَّ رفيقاتها قَدْ دخلن بِحيرةٍ مماثلة، فَلَمْ تملـك الجـرأة لتقول لهنَّ إنّي لا أعرفُ ذاك الـشاب وهـن لَمْ يـسألن عنـه، ثُـمَّ وقفت وقالت لزميلاتها بانكسار:

- أشعر أنني متعبة سـأعودُ إلى البيـتِ وسـأنقلُ محـاضرات اليوم منكن بَعْدَ غدٍ السبت!!

وعادت أدراجها إلى البيـتِ تعـاني اليـأسَ المريـر وتـذكرت صورة علاء، فَتَمَلَّكها الغـضب والنفـور، فَلَقَـدْ كَـانَ ظهـوره بمثابةِ سوء طالع أبعَدَ عنها مازن التي كانت تفتعل عدم قبولها بِهِ بينما كانت ترى فيه رجلاً حريٌّ به أن يتعذبَ من أجلها وَقَـدْ نجحت بإشعالِ نار الحبِّ في قلبِه وتودُّ أن تراقبـه وَهُـوَ يكـوى

بنارِ هواها، لكنّها أَبَـت أن تـستكين وزمَّـت شـفتيها وراحـت تنبعثُ في نفسها كوامن غريزية للانتقـام وخافـت أن يغادرهـا مازن إلى غيرِ رجعـة وَقَـدْ رأت فيـه – وَهِـيَ تخفـي ذَلِـكَ عـن الجميع – رجـلاً صـاحب مـالٍ وجمـالٍ وغرائـز بكـر مكبوتـة ظهرت لَهَا من عينيه المستكينة حِيْنَ كَانَ يتحدثُ إليْهَا.....

عصر ذَلِكَ اليوم أغلقـت هـدى بـابَ غرفتهـا عَـلَىْ نفـسِهَا وجلست قُبَالَةَ النافذة تشرب كأسَ عـصيرٍ. كانـت تنظـرُ مـن النافذة وتمنّي النفسَ أن مـازن لَـنْ يتخلـف يـوم الـسبت عـن اعتراض طريقها وَهِيَ ذاهبة إلى الجامعـة؛ فعاودتهـا الابتـسامة ثانيـة؛ واسـتبدلَ وجههـا الزهـو بـالوجوم، واسـتبدلَ قلبهـا الطمأنينةَ بالحيرةِ، وتمادت في تمنية النفس؛ فراحت تتخيل مازن وَهُوَ يفتش عنها بعينيه المتفرسـتين المليئتـين بـالغريزة المكبوتـة والشباب النضير وَحِـيْنَ سـيراها ويبـصرُ قوامهـا يـسيرُ فـوقَ الرصيف بعطرها المميز وسيسألها عـن سـبب رفـضها لـه، ثُـمَّ ستلتفت إلى وجهِه وترسلُ إليه نظرةً من عينيها فتزيد من لظـى ناره، لكن خاطراً أزعجها حِيْنَ تخيلـت وجـه عـلاء، فتوثبـت لتقريعِه واسـتعادَ وجههـا بعـضَ الوجـومِ؛ ثُـمَّ طـردت هـذه

الوجوم من بالِها وَهِيَ تحتسي آخرَ رشفة من كأسِ العصير بعصبيةٍ حِيْنَ خطرَ لَهَا أن تكون زميلاتها قَدْ وَقَعَ في خَلَدِهن ما يثيرُ الشبهةَ عن علاقةٍ ما تربطها بهذا الشاب وتساءلت:

- ماذا لو اعتقدت زميلاتي أن هناكَ علاقة مَعَ هذا الشاب؟

ثُمَّ وقفت وبعصبيةٍ دَقت برجلِها الأرضَ وتساءلت ثانيةً:

- كيفَ سأبرهنُ لهنَ أنني لا أعرفه ولا أعرفُ ما دار بينه وَبَيْنَ مازن ؟

لكنها عادت وانكفأت جالسةً عَلَىْ الكرسي قُبَالَةَ النافذةِ وفكرت في سؤال مازن عمَّا دارَ بينهما من حديثٍ حِيْنَ يَلقاها صباح يوم السبت وَهِيَ في طريقها إلى الجامعة.

لكن هلعاً دَفَعَ بالدمِ يتصاعدُ إلى وجهها لخاطرٍ جَثَمَ فوقَ قلبها وخافت أن يكون مازن قَدْ شكَّ بعلاقةٍ تربطها بهذا الشاب عِنْدَهَا تناوبت قلبها مشاعرُ الخيبةِ والحيرةِ واليأسِ تارةً، والغضبِ والنفورِ والتحدي تارةً أخرى، ثُمَّ راحت تَكيلُ الشتائمَ لسوءِ طالعها لهذا اليوم واستمرت حبيسةَ غرفتها فريسةَ هيجانها وظنونها حَتّى أجبرتها أمها عَلَىْ الخروج لتناولِ

طعام العشاء ومساعدتها لتجهيز مستلزمات يوم الجمعة الـذي تقضيه العائلة في بيتهم الريفي ضواحي العاصمة.....

لم يكن مازن بأفضلِ حالٍ منها؛ فَقَدْ غَادرَها والغـضبُ يفـرُ من عينيه، فوصلَ إلى منزلِه وَوَلِـجَ غرفتـه دُوْنَ أن يـسلم وَقَـدْ اعتادوا دخوله بهذا الشكل، فأغلقَ بـاب غرفتِـه عَلَيْـهِ وشـغله التفكيرُ بِمَا حصل لَهُ مَعَ هـدى، فـأحسَّ بـالخطرِ يـنغصُّ عَلَيْـهِ صفوَ الحياةِ وَهُوَ الشاب الذي أنهى دراسته في الاقتصاد ويـدير أعمال والده بنفسِه كمديرٍ عام لمؤسسةٍ خاصةٍ واستحضر يقظته واستجمع مكره ودهاءه، فَقَدْ عُرِفَ عنه أنَّه لَمْ يكن ضعيفاً يوماً ما وكثيراً ما سأل نفسه عن سببِ ضعفه أمامَ هدى وَهُوَ المـديرُ القاسي المنضبط في تعامله مَعَ موظفيه؛ فَلَمْ يَجِدْ جواباً ولم يعمل بنصيحةِ والده باختيار فتاة غيرهـا وهـن كثـيرات ومـنهن مـن تعمل تَحْتَ إمرته في المؤسـسة ككاتبـةِ حـساباتٍ تحمـلُ ثانويـةً تجاريةً كَانَ قَدْ رشحها لَـهُ والـده لمـا تملـكُ مـن جمـالٍ وحـسن أخلاق؛ لكنّها كانت ابنة لصاحبِ عيالٍ راحت تنفقُ كلّ مرتبها لمساعدة والدها في إعالةِ العائلةِ الكبيرةِ.

لَمْ يغب عن خاطرِه رفضها لَهُ وَلَم يكن هـذا الأمـرُ بالقليـلِ؛ وَقَدْ كرهها ساعة من الزمن حِيْنَ أخبرته أمّه برفضها إياه لكـن

هذه الكراهية كانت خداعاً لنفسِه ما لبثت أن تحولت إلى حـبٍّ جارفٍ بَعْدَ ساعة واحدة ومنّى النفسَ بأنَّها ستوافق يوماً مـا لا محالة أطالَ أم قرب.

ولم يـستهجن اعتراضـه – المـستهجن شرقيـاً - لَهَـا وَسَـطَ طريقها إلى الجامعةِ ليسألها عن سببِ رفضها لَهُ معتقداً أن هناك مبرراً لِذلِكَ وَقَدْ أجاب عَلَىْ سؤاله لنفسه:

- أليسَ مـن حَقـي اعـتراض طريقهـا لأسـألها عـن سـببِ رفضها لي ؟

لكنّه عَادَ ولامَ نفسه كثيراً عَلَىْ حديثٍ جرى بينه وبينها حينَمَا دَعَاهَا إلى فنجانِ قهوةٍ يوماً في مكانٍ عام وَقَدْ سألته حينذاك:

- ألا تؤمن أن المرأة هِيَ نصفُ المجتمع ويجبُ أن تمارسَ حقها؟

ولسببٍ لا يعرفه هُوَ ولم يقدر عواقبه أسرعَ في الإجابة حِـيْنَ ظنَّ أن المرأةَ تبحثُ عن الرجلِ الغيورِ الذي تدفعه غيرتـه عَـلَىْ المرأةِ حـداً يمنعهـا مـن ممارسـةِ حقهـا في الخـروج إلى النـاسِ وممارسةِ العملِ في الحياةِ فَقَالَ لَهَا ضاحكاً:

- المرأة خلقت لتكون أميرةً في البيت!!

عند ذاك قَالَتْ لَهُ غير آسفة، لكنّها أخفت عكس ذلك:

- إنكم أيها الرجال تنظرونَ إلى المرأة عَلَىْ أنَّها خادمة !!

ثُمَّ بغنج ودلال:

- وَمَنْ سَتوافق عَلَىْ الزواج منك ؟ ... ألحبسها في البيت؟

فابتسم بطرفِ ثغرهِ وَقَالَ:

- نعم .... سأحبسك في قلبي أميرةً !!!

وبينما كان يرنو إليها بعينين ذابلتين شوقاً وحبَّاً قال:

- هل تقبلين بحكمي المتعسف يا أميرتي؟

كان يَجْلِسُ في غرفته يرهقه كل ما يتـذكر وَكَـانَ يُـؤثِرُ أن لا يعيد إلى ذاكرته ما جرى بينه وَبَيْنَ هذا الـشاب الـذي لَمْ يعـرف اسمه بعد، لكنّه وَقَدْ تحول إلى عنصر مهم في الحادثة فَكَّـرَ مليـاً وتساءل:

- كيف عرف هذا الشاب بقصتي مَعَ هدى ؟

- أيمكن أن يكون عَلَىْ علاقة ما معها ؟

ثُمَّ باستغراب:

- لكنّه نصحني بالابتعاد عنها مؤكداً أنّها سَوْفَ تجري ورائي!!

- أم أنَه يبعدني عن طريقِه مَعَهَا؟!!

وقد زادَ هذا الخاطرُ في رأسِه تأكيداً لرفضها لَـهُ حـين تقـدَّم لخطبتها، فَلاحَ الكدرُ في عينيه وأطرقَ متفكراً مغتماً وَرَاْحَ يلعن الشيطان عَلَىْ إغواءِ أبوينا عَلَىْ الخروجِ من الجنة لنكدحَ ونتعبَ؛ ونحبَّ ونشقى.....

أمَّـا عـلاء الـذي شـقَّ طريقَـه يـستقلُ سـيارةَ الأجـرة إلى "البرامكة " وانزلـقَ ماشـياً بـصمتٍ عَـلَىْ رجليـه باتجـاه كليـةِ الحقوقِ وولج بوابتها الرئيسة ورمى كلَّ شيءٍ وراءَ ظهرِهِ.....

عصراً وفي محطةِ الحجازِ للقطاراتِ وفي المقعدِ نفسه جلـسَ علاءُ ينتظرُ موعدَ انطلاقِ الرحلةِ يَنْظُرُ نَحْوَ السقفِ الذي تدلى من زاويته المثقوبة العشُّ الضخم لعصافير الدوري التي نشطت بحركةٍ جنونيةٍ قَبْلَ المغيب، ثُمَّ تنبَّه عَـلَىْ مكـبرِ الـصوتِ يـدعو الناس للصعود، فَهَرَعَ يركبُ لا يلوي عَلَىْ شيء.....

وفي القطارِ قالَ علاءُ لنفسِه مهموماً متنهداً:

- كَمْ تمنيت أن أكون عاشقاً أكتوي بنارِ الحبِّ!!

- كَم تمنيت أن أخـوضَ صراعـاً مَـعَ سَـهَرِ الليـلِ الطويـلِ بانتظارِ كلمةٍ من حبيبٍ أو وصلاً بَعْدَ فراق!!

وانتبه إلى نفسِه وأجفل قليلاً، ثُـمَّ ازدحمـت الخـواطرُ أمامـه وتأسفَ عَلَىْ مَاْ نَصَحَ بِهِ مازن لأنّه لحظ حبَّه لَهَا وسـعيه يلهـثُ وراءَ موافقتهـا عَـلَىْ الـزواج بـه وخـاف أن يكـون مـازن الآن يتخبطُ عَلَىْ غيرِ هدى بَيْنَ ما يكابده قلبه وَبَيْنَ ما نصحه بِهِ، ثُـمَّ وَجَـدَ نفـسه تِلْـكَ اللحظـة كمُحَطِـمِ القلـوب الـذي يـسعى للتخريب بَيْنَ العاشقين؛ واعتقدَ جازمـاً بـأنَّ كلاهمـا - مـازن وهدى - شقيان بسببه؛ وأقرَّ بأنَّه قَدْ أخطأ خطأً جسيماً بحقهـما ولن يغفرا لَهُ إساءته، فـصمتَ في وجـوم و رجـا الله في أعماقِـهِ بلهجةٍ تَنِمُّ عن طلب السماحة والمغفرة، ثُـمَّ مَـسَحَ عَـلَىْ وجهـه مدخلاً بعضَ الطمأنينة عَلَيْهَا وَحلمَ بعشاءٍ مميزٍ لا بدَّ أن أمّه قَدْ تفانت في تحضيره.....

مَضَتْ الرحلة سريعاً، ثُمَّ وَجَدَ نفسه أمامَ محطةِ القطـاراتِ في مدينته، فاستقلَّ سيارة أجـرة إلى القريـةِ وَوَجَـدَ نفـسه أمـام البيت الذي وُلِدَ فيه وتنبعثُ منه رائحة زكيـة، فَدَخَلَـه بقـدمين محاذرتين وَنَظره يسبقه إلى الفناءِ يبحثُ عـن الكـرسي الخـشبي الذي اعتادَ والده الجلوس عليه، فلمحه يَجْلِسُ وبيدِه لفافة تبـغٍ يمجُّ منها بعمق؛ وَقَالَ له:

- مساء الخير يا أبي.

لكن الأب لَمْ يرد؛ ولم ينبس ببنتِ شفة؛ فتوقف علاء؛ وَقَالَ ثانيةً:

- كَيفَ حَالُكَ يا أبي؟

و أردفَ بصوتٍ مخنوقٍ:

- لماذا لا تجيب؟

لكن الأب بَقِيَ صامتاً ساهماً شارداً، فأجفلَ علاء وَلاحَتْ في عينيه الحيرةُ وَرَاْحَ يبحثُ بنظرةٍ مستنجدةٍ عن أمّه ولم يخب ظنه فَقَدْ خرجت أمّه إلى الفناء مرحبةً وَهِيَ تَبْتَسِمُ ابتسامةً متألقةً به واحتضنته وقبلت وجنتيه، ثُمَّ قالت:

- العبرة تأخذ أباك يا علاء !!

فقال باستغراب:

- العبرة من ماذا يا أمّي ؟!

- من الخبرِ المفرحِ الذي ينتظركَ بَعْدَ العشاء !!

اكتسى وجه علاء بعلاماتِ الرضا؛ ووشت شفتاه بابتسامةٍ عريضةٍ وتقدمَ نَحْوَ أبيه وقبَّل رأسه، ثُمَّ قال:

- وهل وَصَلَ قلبك حداً من القساوة لتجعلني آكل متلهفاً وَقَدْ لا أستمتع بعشائي بانتظارِ أن تخبرني، والله لَنْ آكل ما لَمْ تخبرني !!

سادَ الصمتُ لحظةً، أغمضَ الأبُ عينيه، ولبثَ بلا حراكٍ، ثُمَّ سالت دمعتان عَلَىْ خديه، فانحنى علاء يمسحهما بإبهاميه، ثُمَّ احتضن والده؛ وَقَالَ:

- أهذا الحدُّ يفعلُ الخبرُ المفرحُ بصاحبه؟ ... بئسَ الدمع إن لَمْ يكن للفرح!!

فتحَ الأبُ عينيه وَنَظَرَ نَحْوَ ابنه بتودٍ؛ وَقَالَ:

- بني أنا لا أملك بنكاً يحتوي عَلَىْ تشكيلةٍ لمشاريعِ لحياةِ الناسِ ولا أستطيع أن أدخل وأسحب منه ما يتناسب مَعَ ظروفي وحياتي؛ كمشروعٍ ينهضُ بالمجتمعِ نَحْوَ الأفضل؛ لِذلِكَ وبعدَ فصلي من البعثةِ وتَحَطمِ حلمي بأن أصير طبيباً قادني إلى الفشلِ بالحصولِ عَلَىْ مشروع حياة؛ فلا الشيوعية بما قدمت من نظريات حققت طموحي ولم أستطع أن أنهض بنظريةٍ تكون بذرة لمشروعٍ ينهض بالمجتمع.

أطرق ملياً، فتقدم علاء منه وَهُوَ عَلَىْ حذر من أن تكون هذه المقدمة باباً لفتحِ مناقشة عقيمة؛ وَقَالَ له:

- رفقاً بنفسك يا أبي لا تجعل من هـذهِ الأفكـار مـا يـنغصُ عليك عيشك ويدخلك في همٍّ وغمٍّ ؟!

نَظَرَ سلمانُ الحسن نَحْوَ ابنه وابتسم؛ ثُمَّ قال:

- يا بني أنا لست نادماً ولن ينغص شيء عيشي بَعْـدَ اليـوم، فربَّما كَانَ المشروع الذي فشلت في بنائه لا يتناسب مَـعَ طمـوح جيلك؛ عِنْدَهَا سأفقدُ مصداقيتي معك وتلك مصيبة أخرى أن يفقد صاحبُ المشروعِ مصداقيته!!

لكنَّه ضحكَ عالياً وَقَالَ لعلاء:

- لِذلِكَ احذروا أن يكـون مـشروعكم يـا شـباب اليـوم لا يتناسب مَعَ طبيعة أبنائكم !!

هَزَّ علاءُ رأسَه موافقاً وَقَالَ :

- أهذا هُوَ الخبر المفرح يا أبي ؟

- الخبر المفرح يا بني هُـوَ أننـي ألغيـتُ فكـرةَ البحـثِ عـن مشروع من أوليات حياتي وتركتها لكم يا جيل الشباب!!

ابتسم علاء وعدَّ ذَلِكَ نصراً وإن لَمْ يخف خوفه من العودة إلى نقاشٍ عقيم؛ ثُمَّ قال سلمان الحسن:

- لَقَدْ وجدت متابعة شجيرات الزيتون التي زرعتها مؤخراً أهمَّ مشروعٍ في حياتي!!

نَظَرَ علاءُ نَحْوَ والده بنظرةٍ ملؤها الشفقة؛ وَقَالَ:

- افعل ما بدا لك يا أبي لكن لَنْ يستقيم لك ذلك، فمنطقتنا شبه صحراوية ولن يقاوم الزيتون العطش.

عندها هبَّ الأبُ واقفاً وَرَفَعَ يديه كأنَّه يرقصُ فرحاً؛ وَقَالَ:

- لَقَدْ أنهيتُ البارحة حفرَ البئر، والماء الخارج منها عَلَىْ قلتِه سيكفي شجيرات الزيتون إلى أن يقضي الله أمراً كَانَ مفعولاً.

شهقَ علاءُ مستغرباً:

- أحقاً يا أبي ؟

واندفع يعانقُ أباهُ ويراقصه بينما ارتفعت خديجة بصوتها ضاحكةً وبدا سلمان الحسن رغم نحوله وهزله يتمتعُ بصحةٍ وعافيةٍ بيد أن ثقلاً وألماً كَانَ يجثُمُ فوقَ صدره بَيْنَ فينة وأخرى.

واسترقَ علاءُ النظرَ إلى أمّه كانت غارقةً في فرحةٍ قَدْ لا تتكرر ثانية في أي خميس قادم، فانطلقت تمنّي النفسَ بفرحٍ قريبٍ يزيلُ كلّ كربِ السنين.

وانطلقت رائحةُ صينيةِ البطاطا المغطاةِ بلحمِ الديكِ البلدي تلامسُ أنفَ علاء؛ فَقَالَ ممازحاً أمَّه:

- قَدْ لا أحتملُ الصبرَ عَلَىْ هذهِ الرائحةِ يا أمي!!

فسحبته إليها وَهِيَ تقبله ودفعت به إلى الصالون قائلةً:

- هيا بَدل ملابِسك واستحم؛ فَسَتَجِدُ كلّ شيء بانتظارك.

ولج علاءُ بابَ الصالون مسرعاً وخلفه أمّه؛ لكنّه سَمِعَ أباه يحدثُ نفسه بصوت مسموع قائلاً:

- لَنْ يفلح جيلٌ يقفُ أمامَ ناقته يَمدحُها ليلَ نهار في طرح مشروعٍ لأمة؛ بينما أجيال الأمم الأخرى يُفَكِّرُ بغزو الفضاء بَعْدَ أن أصبحَ الحاسوبُ من بديهياتِ جيله؟!!

وسرعان ما تناسى ما سمعه؛ وهمَّ بخلعِ ملابسه ليستحمَّ وتركَ أمّه تجهز مائدة العشاء.....

صباح اليوم التالي أيقظت عصافير الدوري بزقزقتها علاء باكراً، فرأى أن ذَلِكَ خيراً، فهبَّ واقفاً وخرجَ إلى فناءِ المنزل علّه يجدُ أباه يجلسُ عَلَىْ كرسيه الخشبي يمجُّ من سيجارتِه، لكنّه وَجَدَ الكرسي وحيداً، فمدَّ بصره نَحْوَ غرفة أبيه فَوَجَدَ الباب

نصف مغلق ولا أحد عَلَىْ السرير، فتـذكر البئـر وخمَّـن أن أبـاه هناك، فتبعه عَلَىْ عجل.

وحين وصل ألقى علاءُ نظرةً فاحصةً عَلَىْ شجيراتِ الزيتونِ التي شكلت مزرعة متواضعة ولمحَ الهيكل الخشبي الذي يحمـلُ البكرة والسطل، فَلاحَ السرور بعينيه وأخذ شهيقاً عميقاً ودلف بَيْنَ الشجيرات؛ حَيْثُ أبوه يقفُ مزهواً يستمتعُ بالسماءِ الصافية والجو اللطيف وقلبه يتسعُ لاحتضانِ مئات من غراس الزيتون.

ولم يدخر علاء جهداً فاندفعَ يسحبُ الحبلَ من البئرِ وسـقى بعض الشجيرات وكلّما مرَّ من جانبِ أبيه يقول متفائلاً:

- ستضحك لنا الدنيا يا أبي !!

فيبتسمُ الأبُ وَهُوَ يلوحُ بقبضتِه فرحاً.....

صباح السبت وعلاء يقبعُ عَلَىْ كرسيه في القطار كَانَ يتفكـر في حاله، إذ من الطبيعي عَلَىْ شاب قروي مثله لا تملـكُ عائلتـه إلا قطعةَ أرضٍ صغيرة لا يكاد إيرادها يكفي للموسـم القـادم، فكيف وَقَدْ شغلت شجيرات الزيتون قسماً منها:

- فمن أين سيتدبر أمر دراسته ؟

كانَ مـن الطبيعـي أن يعتريـه الحـزن لمـصيره غـير المنظـور، وثارت ثورته وَرَاْحَ يلعنُ حظَه العاثرَ والظروفَ الماديةَ الصعبةَ؛ وَهُوَ مقهورٌ مغلوبٌ عَلَىْ أمره طوال الوقت؛ ففـي البيـتِ كَـانَ يصارع أباه صاحب العقلية المريـضة لكنّهـا مثقفـة متمرسـة لَمْ يصل علاء لحدِّ قهرها، فَقَـدْ صُـقِلَتْ بالانكفـاء عَـلَىْ المطالعـة الشرهة وإن وظفت بغير محلها؛ فاستسلمَ للقنـوطِ وَرَاْحَ يبـثُ الشكوى لنفسه لكنّه كَانَ يشعرُ بأنَّه يخفي جانباً عظيماً من المكـر والدهاء جانباً مقيداً من المقدرة الفائقـة عَـلَىْ التلاعـب بعقـولِ الناس، لكنّه كَانَ يقيدها بنفسه مخافـة أن تـصلَ إلى حـدِّ الجـبن وَكَانَ يرسخُ في ذهنِه أنّه غيرُ قادرٍ عَـلَىْ اسـتخدامِ هـذا الجانـب خصوصاً بَعْدَ أن أحسَّ أن هذه المقدرة بدت أكثر نـضوجاً بَعْـدَ ترفعه إلى السنة الثالثة في كلية الحقـوق وبـدا لَـهُ وَهُـوَ يـدرسُ تاريخ القوانين الوضعية وصارت تطفو عَـلَىْ خيالـه، فتوثبـت نفسه وعلَّلها بأنّه وإن حرم كثيراً في مرحلة مراهقته فسيعوضها لاحقاً.....

لمعت في ذهنِه صورةَ هدى ومازن فَخَفَقَ قلبُه والتهبَ وجهه احمراراً وَدَخَلَ بقلقٍ وَتذَكَّرَ قولها لزميلاتها:

- أنا لا أبحثُ عن المالِ، فوالـدي أغنـى مـن والـده لكنّـي أبحثُ عن حبيبٍ يؤمن بمساواةِ الرجلِ مَعَ المرأةِ.

وقال لنفسه:

- إذن هُمَا غنيان!

وتـساءل مـرةً ثانيـة وثالثـة واسـتيقظ خيالـه واضـطرمت عواطفه وَوَقَفَ أمام نافذة العربة وَوَشَىْ ثَغرُهُ بابتسامةٍ عريـضةٍ وَقَالَ مطمئناً:

- إذن تبحث عن الحبِّ !!

ثُمَّ قال لنفسه هازئاً:

- الجنس ولا شيء غيره، فالحبُّ هِـيَ الكلمـة التـي نختبـئ خلفها حِيْنَ نتحدث عن الجنس!!

ثُمَّ انتابه قلقٌ هائلٌ وَهَبَطَ عَلَيْهِ الخوف لخاطرٍ حدَّثَ به نفسه قائلاً:

- لِمَ أقنع بما دُوْنَ النجوم؟

- لِمَ لا أقتحم وأجرب حظي معها؟

ومنَّى النفس قائلاً:

- ربما كَانَ مازن لا يرقى إلى طموحها!!

وَهُوَ يَهزُّ رأسه ويبتسمُ بطرفِ فَمِه:

- لا يرقى إلى ذوقها!!

وقد أيقظَ هذا الخاطرُ علاء من غفلته؛ وبدا وجهه يَشِيُ بشيءٍ جديدٍ رَاْحَ يطفو عليه، فَسَرَحَ بِفكرِه بعيداً وما زالَ واقفاً أمامَ النافذةِ؛ ولم يَغِبْ عن باله أن ملابسه لا تُظهِر حالة مادية ميسورة كَمَا بدا مازن أول أمس، فالزي الجامعي الأزرق كَانَ بالنسبة إِلَيْهِ – علاء - نعمة عظيمة من الله قيضَ الله لَهُ الجامعة لتطبيقه، فازدادَ يقينه بأنَّ القوانين التي تضعها الحكومة هِيَ في صالحِ المواطن ولا يضير هذه القوانين عدم فَهم الناس لها، وضربَ مثالاً عَلَىْ نفسِهِ بأنَّ هذا الزي هُوَ خيرُ مكانٍ يخفي فيه فقره، لكنّه – الزي – كَانَ يدفعه إلى الشعورِ أكثر بأنّه بحاجةٍ إلى المالِ، المال الذي بوفرته يمكن الحصول عَلَىْ النفيسِ من الثياب؛ ومن الطعام ما لذ وطاب؛ لكن وصول القطار محطة "الحجاز " كانت تكبحُ ابتسامته التي لَمْ تزلْ ترتسمُ عَلَىْ شفتيه، فزمَّهما وَهَبَطَ من العربة وبما أن في الوقتِ متسع، فأول محاضرة لَهُ في الثانية عشرة ظهراً توجَّه نَحْوَ " بابِ الجابيةِ " كَمَا كلِّ

سبت لتناولِ طعامِ الإفطار؛ وَقَلَّما يفلتُ منه أسبوع لا يفتتحه بصحنِ فولٍ باللبن الذي أحبه مِنْذُ دخول الجامعة؛ واعتاد عَلَىْ تناوله، ثُمَّ يتوجه ماشياً عبر أزقة دمشق القديمة رغم ثقل حقيبته التي تحتوي عَلَىْ ملابسِه الداخلية والفوط وحاجيات أخرى قَدْ تصل إلى بعضِ أكياسِ المؤونة من برغلٍ وعدسٍ وكشكٍ، فيتخطى بابَ " الجابيةِ " هابطاً نَحْوَ سوق النحاسيين، فيتمهلُ في السيرِ يراقبُ انكبابهم عَلَىْ طَرْقِ النحاسِ إلى أن يصل إلى " باب مصلى "، فيستقل باص النقل الداخلي ليصلَ إلى تقاطعِ التقاء شارع " مخيم اليرموك "، بشارعِ " مخيم فلسطين "، فيتابع سيره إلى المنزلِ، وقَلَّما يخلو من سكانِه الطلبة من متخلفٍ عن محاضرةٍ، أو من لا محاضرة لدية، فَكَانَ المنزلُ كفندقٍ لا تخلو ساعة من قادمٍ جديدٍ، فولجَ به ورمى بحقيبتِه الثقيلة فوقَ كرسيه وقفلَ راجعاً.....

لما غَادرَ علاءُ غرفته كَانَ يعلمُ وجهته جيداً، لكن ما لَمْ يستطع أن يفسره هُوَ سيره عَلَىْ الطريقِ نفسه الذي سار عَلَيْهِ أولَ أمس وَهُوَ يتتبع الفتيات الأربع، فاجتازَ مواقفَ الباصات حَتّى وصلَ إلى أولِ شارعِ " الزاهرة القديم " حَيْثُ التقى مازن

بهدى، فوقف هناك وفي المكانِ نفسه مطرقاً رَاْحَ يستعرضُ كـلَّ لحظةٍ مرت ويتذكرها جيـداً بكـلِّ تفاصـيلها ودقائقهـا وَتَخَيَّـلَ وجهها الفائض حيوية؛ فَقَالَ لنفسه:

- ترى أينَ أنت أيتها الملعونة؟ ألم يخطر ببالك أنني هنا؟!!

ثُمَّ لَمْ يَجِد بداً من أن يلقي بنفسِه عَلَىْ مقعدِ موقفِ الباصـات خائراً متعباً عَلَىْ غير عادته وزفرَ بضجرٍ كتعبيرٍ عن نفـادِ صـبره أو امتعاضه من عدمِ مصادفته لَهَا كَمَا كَـانَ يأمـلُ لكـن الـشارع كَانَ يزدحمُ بالناسِ والباعةِ المتجولين يدفعون عرباتهم أمـامهم ويـشاركونَ أبـواق الـسيارات وازدحامهـا شـقَّ صـمتِ الشارع.....

كان علاء يَجْلِـسُ وَقَـدْ جرفـه تيـار خـواطره بعيـداً، وَرَاْحَ يستحثُّ ملكاته المقيدة. يستخرجُ مقدرته عَلَىْ التلاعب بعقـولِ الناس وَكَمْ كانت سعادته كبيرة حِيْنَ يجول بخاطره إتقانه لفـنِ المكرِ والخديعة؛ مَعَ إصراره عَلَىْ كَبْحِ جموحها ليبقي عَـلَىْ حـبِّ الناسِ له؛ لكن نفـسه الأمـارة بالـسوءِ مـا انفكـت تـستدرجه لإطلاقِ قيودها وَقَلَّمَا نجحت لكن هذا اليوم كَانَ تمردها جليـاً طفا عَلَىْ وجهه بشكلٍ واضح؛ ولاسيما وإن صورة هدى لَمْ تزلْ

تتراءى أمامه بجمالها وأناقتها وعطرها المميز الأمر الـذي رسـمَ ابتسامة دائمة عَلَىْ شفتيه؛ فَرَاحَ يحلمُ ويخططُ لاستدراجها أو إلى التعلق به دُوْنَ أن يصل هذا التعلق لدرجـة الحـبِّ وهَـزَّ رأسـه مؤكداً لنفسه التعلق به وَلِمَ لا ؟! وَهُوَ شاب لَمْ يتجاوز العشرين من عمره فَهُوَ مفعـمٌ؛ بـصحةٍ عارمـةٍ وشـباب متـدفق يمتلـئ حيوية ونشاطاً وازدادت ابتسامته ليؤكدَ لنفسه أنَّه كنـزٌ بكـرٌ في كلِّ شيء.....

قَطَعَ عَلَيْـهِ حبـل أفكـاره وقـوف فتـاة أمامـه؛ فَرَفَـعَ نَظَـرَهُ مستطلعاً فرآها ربعةَ القامة ببشرةٍ صافيةٍ وعينين عـسليتين ذات جسمٍ ممتلئ طالعته بابتسامةٍ رقيقة؛ وقالت له:

- أنا لمياء صديقة هدى وكنتُ أسيرُ معهـا أول أمـس حِـيْنَ اعترض طريقنا مازن.

أشرقَ وجه علاء بابتسامةٍ ماكرة؛ وَقَالَ لها:

- أهلاً بالآنسة لمياء اسمي علاء، ثُمَّ وابتسامته تزداد تألّقاً:

- سنة ثالثة حقوق.

ثُمَّ وَقَفَ وجرى بصره يـستعرض جـسدها الفتـي بتـأنٍ وروية من حذائها الريـاضي إلى الـزي الجـامعي الأزرق الـذي

ترتديه، ثُمَّ تأملَ وجهها وحدقَ ملياً بعينيها العسليتين وأغمض عينيه كأنَّه يستجمعُ بقايا عطرها الـذي سـبقها وسـادَ صـمتٌ قصيرٌ جعلت تنظر إِلَيْهِ كأنَّها تستفسرُ عن سرَ حـضوره إلى هنـا لكنّه بقي صامتاً إلى أن سألها:

- وماذا تدرس الآنسة؟

ابتسمت وقالت:

- نحـن الأربـع فتيـات نـدرس اللغـة الإنكليزيـة في كليـة الآداب.

- ماذا أستطيع أن أخدمك؟

بادئ ذي بدء بدا عَلَىْ وجههـا لونـاً مـن الارتبـاكِ، فدارتـه بابتسامة، ثُمَّ قالت:

- أريدُ أن أسألك عَمَّا دار بينك وَبَيْنَ مازن أولَ أمس!!

لَمَعَ ذهنه وتوقدت ملكاته وَرَاْحَ يبتـسم مـاداً رأسـه نحوهـا وكأنَّه يسألها عن سببِ اهتمامها، ثُمَّ قالَ لها:

- هَلْ هِيَ من بعثت بك إلي؟

- نعم هِيَ صديقتي.

- ولِمَ لَمْ تأت هِيَ بنفسِها وتسأل؟

التفتت إِلَيْهِ حانقة وعبست قسمات وجهها وقالت:

- أرجوك يا سيد علاء أنت طالبٌ جامعي؛ ويفترضُ بكَ أن لا تتدخل بحياتهم الخاصة!!

فَهَزَّ رأسه كأنَّه يَطلبُ منها أن تستمر في الحديث سيما وَقَدْ بدا لَهُ رغبتها بالمتابعة لكنّها باغتته برغبتها بالسير قليلاً عَلَىْ امتدادِ شارع " الزاهرة القديم "، فلم يمانع وبدا مهتماً أكثر؛ ثُمَّ قالت:

- لَقَدْ اعترفت لي هدى اليوم صباحاً بحبِّها لمازن، وما كَانَ رفضها لَهُ إلا لتختبرَ حبَّه أكثر لكن تواجدكَ قربهم أولَ أمس قلبَ الأمورَ رأساً عَلَىْ عَقِب.

ثُمَّ توقفت واقتربت منه أكثر وقالت بابتسامة:

- ماذا قلت له؟

أطرق علاء ملياً؛ ثُمَّ قَالَ لَهَا بمكر:

- لا شيء يضر بعلاقتهما!!

ثُمَّ أردف:

- قلت لَهُ لا يليقُ بكَ أن تبذل كرامتك أمـام النـاس مـن أجلِ امرأة!!

أجفلت لمياء وشخص بصرها وتأملته بعمق، ثُمَّ قالت:

- ألهذا الحدِّ يملك قلبك من القساوة؟

استهجن كلامها لكنّه ودَّ أن ينسحب؛ فَقَالَ لَهَا هازئاً:

- بالسلامة يا آنسة بلغي سلامي للآنسة هدى وأخبريهـا أن لا تقلق سأقابله قريباً وسأخبره أن يبذل كرامته أمام كـلِّ نـساءِ الكون!!.....

سارَ علاء عَلَىْ امتدادِ شارع " الزاهرة القديم " بينما انكفأت لمياءُ راجعة نَحْوَ هدى التي كانت بانتظارها عَلَىْ ناصـية شـارع "مخيم فلسطين " متخفية عن نَظَرِ علاء.

وجاء صوت من ورائه:

- هاي أنت !!

توقفَ علاءُ عن المسيرِ حَتّى أدركه صاحب الصوت؛ فـإذ هُـوَ مازن نفسه؛ تصافحا وَهُمَا يخفيان حقيقة مشاعرهما بابتسامةٍ باهتـةٍ وقسمات وجه لا يفسر، وسارا دُوْنَ أن يتكلم إحداهما مَعَ الآخر.

وقطعا مسافة قصيرة وَهُمَا يحافظان عَلَىْ صمتهما، ثُمَّ توقف مازن ووضع يده عَلَىْ كتف علاء ليوقفه وَقَالَ لَهُ بنبرةِ غضبٍ، لكن بصوت منخفض:

- ماذا كنت تقول للمياء ؟!

شعرَ علاءُ بأنَّه أمامَ خطرٍ وشيكٍ لأنَّه تيقنَ أن مازن كَانَ يراه ويراقبه، فأراد أن يكبح من غضبه الواضح من لهجته الحادة و إن كانت منخفضة الصوت؛ فَذَكَّرَه قائلاً:

- أنت تحبُّ هدى وستتزوجُ بها فَمَا وجه اهتمامك بلمياء ؟!

- إن لمياء هِيَ صديقة هدى ولا بدَّ أنكما كنتما تتحدثان بخصوصنا!!

- ماذا يضيرك أن يتحدث اثنان في مصلحتكما ؟!

أجفل، ثُمَّ قالَ مندهشاً:

- وكيف ذَلِكَ ؟!

- كانت لمياء تتحدث في مصلحة صديقتها هدى مَعَ صديق مازن!!

- أنت !!

- هكذا اعتقدتا!!

هدأ روع مازن قليلاً وَقَالَ:

- ما اسمك ؟!

- علاء..... علاء الحسن أدرس الحقوق.

- حسناً ماذا كانت صديقة هدى تتحدثُ إليك بخصوصنا؟

- لا شيء تريدُ أن تعرفَ ما دارَ بيني وبينكَ من حديثٍ أولَ أمس قَبْلَ أن تغادر غاضباً!!

- وماذا قلت لها؟

- لا يهم ما قلت لَهَا لكن المهم أن ما قلته لك هُوَ ما يحصل الآن!!

ودع مازن علاء وأقفل راجعاً نَحْوَ شارع " مخيم اليرموك " بينما استمرَ علاءُ يسيرُ عَلَىْ امتدادِ شارع " الزاهرة القديم " مطرقاً متفكراً فيما آلت إِلَيْهِ هذه الصدفة؛ وأحسَّ أن لا رغبة لَهُ بالذهاب إلى الجامعة؛ فاستمر يسير حَتّى قطع " باب مصلى" وَوَلج باتجاه "باب الجابية " إلى أن وصل سوق " النحاسيين "....

تأسره دوماً دمشق القديمة؛ تختزله المشاهد الطافية عَلَىْ جدار كل بناءٍ قديم؛ توسع لَهُ في صدرها كُلَّمَا دَخَلَ شارعاً أو

حياً؛ تكتنفه أسطحها القائمة عَلَىْ الـدعائم الخـشبية كجنـاحي حلم كبير كبير .....

عندما ترامى وقـع أقـدام لميـاء تـسيرُ باتجـاه شـارع " مخـيم فلسطين " حَيْثُ هدى تنتظرهـا بخـوفٍ وصـبر وَقَـدْ ارتـدت فستاناً أبيض ورمـت " بـشالة " فـوق شـعرها فَغَطَّـتْ نـصفه وتركت نصفه الآخر يستلقي عَلَىْ ظهرِها؛ تتفكر في ما آلت إِلَيْهِ حالها بَعْدَ ظهور هذا الشاب في حياتها؛ وهذا ما جعلها تعـترفُ للمياء بحبِّها لمازن ورجتها أن تـسأله عَـمَّا قالـه لمـازن ووقفـت بعـصبيةٍ تنتظـرُ وصـولها وتنقـرُ عَـلَىْ الأرض بكعـبِ حـذائِها الطويل المدبب، لكنَّ خطوات مازن كانت سريعةً بشكلٍ ظهـرَ خلف لمياء يسيرُ بخطاه المديدة يرتدي بدلةً رماديةً داكنةً وربطةَ عنقٍ مائلة نَحْوَ السوادِ تخللها ورود صفراءَ وحمراءَ تبعثرت عَلَىْ مساحتها وسرعان ما تـأزَّم الجـو وشُـحِنت العواطـف وسـادَ الصمت، فَرَاحَ ثلاثـتهم يتبـادلون النظـرات لكـنَّ لميـاء بـدت بعينيها البراقتين ووجهها الأسمر مرتبكة وراحت تنتظرُ فرصةَ الانسحابِ كفريسةٍ تنتظرُ غفلة المفترس وتلوذ بعيداً؛ وأخيراً لَمْ تجد إلا الانسحاب معتذرة، وغابت عن أعينهما دُوْنَ أن ينـبسَ أحدهم ببنتِ شفة.

خَفَقَ قلبُ مازن بشدةٍ وتوجعَ فؤاده وتطلعَ إليها وَقَدْ اعترى وجهه حنان جارف غيبَ جميع عواصف الحنق التي لازمته ليومين كاملين وَبَدَتْ لَهُ هدى وكأنَّها تنتظره من ألف عام، فالتهمها بروحه، ولم تكن هدى بأفضل منه فَقَدْ رَجَفَ قلبُها وشَخَصَ بَصَرهَا بوجه مازن كَمَا لَمْ يشخص سابقاً، وَرَاحَت تَفركُ أصابعَ يدها اليمنى بأصابع يدها اليسرى، ثُمَّ انفرجت شفتا مازن عن ابتسامةٍ ودعاها إلى فنجانِ قهوةٍ وَلَمْ تَجِدْ نفسها إلا وَهِيَ تركب معه بسيارته ويندفعُ مبتعداً.....

عَادَ علاءُ إلى غرفتِه سريعاً واستلقى عَلَىْ سريره وَقَدْ ارتدى " قلابية " بيضاءَ اللون فضفاضةً مريحةً واضعاً يديه المتشابكتين تَحْتَ رأسِه وصورة لمياء لا تفارق خياله، فَرَاحَ يتذكر شفتيها الصغيرتين الممتلئتين وَجَسَدَهَا الأهيف رغم أنّها لَمْ ترقَ لجمالِ هدى لكنّها كانت تشعُّ برقّةٍ وتسيرُ بخفةٍ وتنظرُ بلوعةٍ أسرت لبَّه، فبدا بَعْدَ أن فارقته بأول شارع " الزاهرة القديم " شديد الاهتمام بها و إن اعترضت بعض الصور بخيالٍ لهدى ذات القوام الممشوق أكثر قليلاً لكنَّ علاء بَدَا كأنَّه يُفَكِّرُ بالأنثى أكثر مِمَّا كَانَ يفكر بإحداهن ولم يدر إلا وقد غطَّ بنومٍ وَرَاْحَ يحلم.

..... راحت لمياء تحررُ شعرها الأسود الفاحم الطويل من عصابته التي عَلَىْ شكلِ منديلٍ أحمرَ قانٍ، فَهَوَىْ الشعر يُغطي الجَسَدَ الأهيف الممتلئ تسيرُ مطمئنة وحدجته بنظرةٍ ترافقها ابتسامة كأنَّها تَدعوه إلى شيءٍ ما بحرارة وإصرار، فاندفع نحوها.....

لكن ثَمَّةَ ذبابة كانت تعانقُ جبينه بلسعاتٍ مزعجة، فاستيقظ وَقَدْ استولت عَلَيْهِ رغبة جامحة بسحقها لكنّها استطاعت بحركةٍ شيطانيةٍ بسيطةٍ أن تنأى بنفسِها عن قبضتِه وتركته ممتعضاً من عدم مقدرته عَلَىْ متابعة الحلم وراحت تعانقُ سلكَ التيار الكهربائي لا مبالية.....

التقت أعينهما وَهُما يجلسان حولَ طاولةٍ في زاوية المطعم وبينهما فنجانا قهوة وسعادة مفضوحة تطفو عَلَىْ وجه مازن لكنَّ هدى قَدْ عادت إلى صلابتِها وقوة شكيمتِها، فراحت تنظر إِلَيْهِ بغنجٍ ودلالٍ وكأنَّها تقصد إثارته واستنفار كوامن نفسه الشابة البكر لكنّها عدلت عن فكرتها واكتفت بصمتِها تفضحُ سعادتها واستكانتها للسعادة.

ولم يكن بوسعِ مازن إلا أن يثمل بسعادةٍ معتقةٍ وأيقنَ أنَّه فَازَ بقلبِها لا مجال للرجعة، فَهُوَ لَمْ يحب سابقاً ولم تكن تجربته

السابقة وَهُوَ طالب في الثانوية إلا نزوة مراهقٍ عـابرة ولم تكـن القبلة التي سَرَقَهَا من خَدِّهَا تعني لَهُ شيئاً وها هِـيَ هـدى وَقَـدْ منحته موافقة ضمنية، فَشَعَرَ أنَّه يقبضُ عَلَىْ السعادة بكلتا يديه، ثُمَّ قالَ لها:

- سأبعث بأمّي إليكم.

ضحكت هدى بابتسامة رقيقة، فاندفع الدم في وجـه مـازن واحتقن فَرِحاً وبانت عَلَىْ شفتيه ابتسامة عريضة، ثُمَّ قالت:

- نعم ابعث بها.

وأردفت بغنجٍ ودلالٍ واضحين:

- لكن بسرعة!!

- الليلة !!

- ودراستي ؟

- ستكملينها وأنت أميرة بيتي!!

- وإن رزقنا بأطفال ؟

- سنستعين بمن يعينك في تربيتهم.

عبست هدى قليلاً ولحظ هُوَ ذلك، فَتَطَلَّعَ إليها مَاداً برأسِـه نحوها وَقَالَ:

- ما بالك يا هدى لَقَدْ تغيرت ملامح السعادة عَلَىْ وجهك؟

ارتبكت قليلاً، ثُمَّ ازدردت ريقها، وقالت بِبحة:

- ماذا قالَ لكَ ذاك الشاب الذي كدت تتشاجر مَعَهُ أول أمس؟

- تقصدين علاء؟

- لا أعرف اسمه !!

- لا تقلقي كَانَ يوصيني بك !!

ثُمَّ وَهُوَ يضحك:

- سأكافئه!!

فتطلعت إِلَيْهِ باندهاش؛ فَقَالَ لها:

- سأدعوه إلى حفلة عرسي!!.....

ومضت مراسيم الخطبة والتحضير ليومِ الزواج بسرعةٍ مذهلة؛ ولم يَجد مازن مشقة في العثورِ عَلَىْ علاء حَيْثُ أرسلَ إِلَيْهِ بطاقة الدعوة لحضورِ حفلة الزفاف والتي حددت يوم الخميس.....

تلقى علاءُ الدعوةَ مسروراً؛ لكنّه وَقَعَ في حيرةٍ كبيرةٍ فَقَدْ تجاذبت رأسه أفكارٌ ثلاث كَانَ أولها كيفَ سيوصل نبأ تخلفه عن الحضورِ هذا الخميس إلى أبويه؟

وَهُمَا اللذان اعتادا عَلَىْ قدومِه أسبوعياً ماخلا مـرة واحـدة حَيْثُ آثر البقاءَ في العاصمةِ للتحضيرِ لامتحانِ مادةٍ مـن مـوادِ السنة الثانية وعلى أثرِهَا عاشت العائلة الصغيرة في قلقٍ مرعبٍ لَمْ يزله إلا وخديجة تغدو مبكرةً إلى العاصمةِ لتتبين سبب غيابه؛ وعلى أَثرِهَا قَرَّرَ أن لا يتخلفَ عنها قَط؛ وثانيها عدم امتلاكـه أي بدلة سوى بدلة الزي الجامعي ليحـضر بهـا حفلـة الزفـاف وتَحَسَّبَ أن يكون موضعاً للسخرية غير المباشرة؛ وثالثها وكَانَ الأقسى عَلَيْهِ أنه لَمْ يكن يملكُ مـن المـالِ مـا يـشتري بـه هديـة للعروسين الأمر الذي قَدْ سيوقعه بحرجٍ شديدٍ أمامَ العروسين من جهةٍ وأمامَ لمياء التي اعتقدَ أنَّها ستكون عَلَىْ رأس المدعوات إلى الحفلةِ من جهةٍ أخرى، فَرَثَى لحالِهِ وتَخَلَّفَ عن الـذهابِ إلى الجامعةِ وَمَكَثَ طوال النهار في الغرفةِ وحيـداً بَعْـدَ أن غادرهـا خليل إلى أهلِه.

وسرعان ما وَجَدَ نفسه في شـارع " مخـيم اليرمـوك " وسـار عَلَىْ مهـل متجهـاً نَحْـوَ شـارع " لوبيـا " بقلـبٍ متـأوهٍ وفكـرٍ مشغولٍ. حَـاولَ الـترويح عـن نفـسِه باسـتعراضِ شـواخص المحال التجارية المترامية عَلَىْ طرفي الشارع الذي اكتست مَحَالـه

روعةً في الديكور وذوقاً في تصنيف الملابس؛ لكنّها كانت تعود عَلَيْهِ بالخيبةِ والحسرةِ، فَكَانَ كُلَّمَا رأى بدلة أو ربطة عنق وقرأ السعرَ المثبت عَلَيْهَا يزمُّ شفتيه ويخبئ حرجه من نفسه؛ فَسِعْرُ كلّ قطعة قَدْ تكفيه شهراً مَعَ أَنَّه كَانَ يمنّي النفسَ بالعثورِ عَلَىْ محلٍ يؤجره بدلة لحضورِ حفلة الزفاف لكن كل جهوده باءت بالفشلِ؛ فَنَكَصَ راجعاً مكسور الخاطر ورمى بنفسِهِ عَلَىْ السريرِ وَرَاْحَ يغمضُ عينيه ويزمُّ شفتيه حَتّى غلبه النعاس؛ فَنَامَ ربع ساعة أو يزيد، ثُمَّ أفاقَ منزعجاً متكدراً ساخطاً عَلَىْ الدنيا وَجَلَسَ ينتظر غروبَ الشمس ليذهب إلى الحفلة وَقَدْ كَانَ قَدْ قَرَّرَ أن يذهب بزيه الجامعي ودون أن يهدي العروسين شيٌ ما وَقَدْ بَرَّرَ لنفسِه ذَلِكَ بأنهما أغنياء ولا حاجة لهما بالهدية.....

مساء الخميس أوصله سائق التاكسي إلى العنوان حَيْثُ باب المزرعة الضخمة يفتحُ ذراعيه للمدعوين، للوفودِ المتلاحقة من السيارات المجنونة، للوفودِ العابرة بفرحٍ، وَهُوَ واحدٌ منهم سيدخل كَمَا يدخلون لكنّه تساءلَ بَعْدَ أن رأى حالة الغنى الفاحشة عَلَىْ وجوه المدعوين:

- هل أستطيعُ أن أقفَ بينهم مثلهم؟

ثُمَّ قَالَ لنفسه بحسرةٍ:

- آن لي أن أعرف من أنا؛ وأين موقعي في هذا العالم؟

ثُمَّ حَدَّثَ نفسه بحسرة:

- هل يمكن لمنزلِه الطيني القابع في قريةٍ يَكَادُ الجفافُ يقتلها أن يرقى لهذِه الكتلة الإسمنتيةِ الضخمة التي تشكل " الفيلا " وحوض السباحة الملتصق بها كظلها؛ وتلك الخيمة بِسَقفِها القرميدي.

فَأَطرَقَ وَهُوَ يَهزُّ رأسه نافياً، ثُمَّ حَدَّثَ نفسه قائلاً:

- هل يمكن لشجيراتِ الزيتون الصغيرةِ التي كَادَ أن يقضي سلمان الحسن فيها ميتاً أن ترقى إلى هذا الكمِّ الهائلِ من شجرِ الزيتون والرمان والعنب؟

فأطرق ثانية وَسَطَعَ عَلَىْ عينيه الحزن؛ فَشَتَمَ الدنيا وَوَبَّخَ نفسه عَلَىْ قبولِ الدعوة وَفَكَّرَ في مغادرةِ المزرعةِ فوراً؛ لكنَّ رغبته برؤية لمياء منعته من ذَلِكَ وَدَخَلَ متوجساً أن تلتقي عيناه بعيني هدى أو مازن وأبدى نَدَمَهُ عَلَىْ عَدَمِ انتقاءِ كلّ كلمة تحدَّث بها إليهما سابقاً رَاْحَ يشد من عزيمة نفسه بأن قَالَ لنفسه:

- وحدك يا علاءُ يَجِب أن تعرفَ مـاذا عَـلَىْ القـروي الـذي لَفَحته شمسُ الحقول أن يقف جانباً و أن يكتفي بجرعةٍ من ماءٍ باردٍ تطفئ احتراق جوفه المشتعل؟!!

- وحدك يا علاء يجب أن تعـرفَ موقعـكَ عَـلَىْ خارطـةِ هذه الحفلةِ!!

لكن مازن قَطَعَ عَلَيْهِ حبل تداعياته وَهُوَ يَسيرُ نحـوه بطولـه وبخطواته المديدة يرتدي بدلة الزفاف الأنيقة؛ وَمَدَّ يَدَه مرحباً:

- أهلاً بصديقي علاء !!

وضاحكاً – يذكره بلقائهما الأخير - وَهُوَ يغمزُ بعينه:

- كَمَا اعتقدتا!!

وتصافحا بحرارةٍ؛ ودَعَاهُ للدخولِ وَهُوَ يمسك بيده ويقوده إلى الداخل لكنّ مازن توقف وَنَظَـرَ إِلَيْـهِ مـستغرباً بَعْـدَ أن رآه يرتدي زيه الجامعي:

- علاء... هل أنت قادمٌ من الجامعةِ ؟!!

فابتسم علاء مرتبكاً لكن مازن عَادَ؛ وَقَالَ:

- يا لك من طالب مجد !!

جاء الفرج لعلاء؛ فابتسم ثانية؛ وَقَالَ له:

- ما العمل يا سيد مـازن ؟ أنـت تعـرف أن الحقـوق فـرعٌ بحاجةٍ إلى جدٍّ متواصل!!

عِندمَا ترامى صوت وقع أقدام علاء القاعة كَانَ قلبُـه يخفـقُ بقوةٍ وتـوجسَ خوفـاً وَرَاْحَ يتخيـلُ الـرؤوسَ والوجـوهَ التـي ستطالعه؛ لكنّه تَمَالكَ نفسه وَدَخلَ مُسَلِّمَاً واتجه نَحْوَ هدى التـي تَبَدَّتْ بفستانٍ أبيضَ تُرِكَ نصفه الخلفي يطول حَتّـى اعتقـد أَنَّـه كومة من الستائر الملقاة فوقَ بعضها البعض.

تطلعَ إلى وجهها كَانَ جمالها أخاذاً؛ وَبَدَتْ بشرتها العاجية أكثـر لمعاناً وصفاءً، ورسم قلمُ الكحلِ تَحْتَ رموش عينيها خطاً أسـود بديعاً؛ وبدا الشعر الأسود لامعاً نُثِر تحـت إكليـل الزفـاف لـيملأ منكبيها ويغطي باقي ظهرها؛ وبانت أقسام من ذراعِيهـا وكتفيهـا بيضاءَ هيفاءَ تَكَادُ تسيلُ النضارةُ منهـا وعـلى يمينهـا وقفـت لميـاء ترتدي فستاناً أبيضَ وشعرها أُحكِمَ لفَّـه بمنـديلٍ أصـفرَ، فَبَـدَتْ كأنَّها وصيفة ملكة؛ فتقدم نحوهما وصافح هدى قائلاً:

- مبارك زواجكما وبالرفاء والبنين.

ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ لمياء وَصَافَحَهَا لكنَّ الهزيمةَ كانـت تَجـثُمُ فـوقَ صدره فسارعَ يأخذُ مَكَانه بَيْنَ الناسِ وافترشَ مقعداً وثيراً حِيْنَ

بدأ المدعوون بالانضمامِ إلى الرقصِ وَرَاْحَ يراقبهم ويؤخذ بمشهدِ قبَّةِ القاعة الضخمة التي استبدلت الأنوار الساطعة بنجومِ الليلِ والهواء العليل بالجوِّ الخانق لكنّه كَانَ يلاحقُ لمياء ببصرِهِ والتي شاركنها رفيقاتها الاثنتان فرحتها بزواجِ هدى.....

انتصفَ الليلُ وأَنْهَكَ علاء طول المراقبة حَتّى شَعَرَ بضرباتِ الامتعاض تنقر جمجمته؛ وموجات الحزن تلفُّ محياه؛ كل ذَلِكَ لَمْ تستطع طرده الوجبة الدسمة التي قدمت للمدعوين ولا التخفيف منه الفواكه والحلوى المبذولة للجميع، لكنَّ لمياء بقيت طيلة الحفلة تتنقل كفراشة أسرت قلبه وحركت عواطفه؛ فجاشت وحمحمت حَتّى أسكرته، وتساءل:

- ألا يعقل أنها لَمْ تنظر إليَّ ؟

- ألا ينبغي لَهَا أن تجامل ولو بكلمة؟

- هل ضاعت هدى مَعَ أنَّها حلمٌ صغيرٌ عابرٌ لتضيع مَعَهَا لمياء؟

هَبَطَ اليأس عَلَىْ علاء وعزَّى نفسه بأنَّ مّاْ فَكَّر بِهِ عن هدى ولمياء لَمْ يغادر جمجمته فَلِمَ اليأس؟!!

لكنه كَانَ يحلمُ بفرحةٍ تُسكرُ جوارحه؛ فرحة عَلَىْ شكلِ كلمة؛ فرحة عَلَىْ شكلِ ضحكة؛ فرحة عَلَىْ هزةٍ عميقةٍ تتغلغلُ

في أنحاءِ جَسَده؛ لكن هيهات؛ فَلَقَدْ تشبث الجـبن في مفاصِـلِه؛ وَسَقَطَ ذعراً!!

وقال لنفسه:

- أنظر ماذا أنت فاعل بمرارةِ اليأسِ والانتظار؟

- أين مقدرتك عَلَىْ التلاعبِ بعقولِ الناسِ ؟

- وأين علامتها التي بَدَت تَطفو عَلَىْ وجهك؟

أطرقَ وَهَزَّ رأسه وأجاب نفسه:

- لَقَدْ انهارت كلّ قلاعـك الواهيـة أمـامَ أول مفارقـةٍ بينكَ وبينهَم!!

وبحسرةٍ تابع:

- لَقَدْ سَحَقَكَ غِنَاهم كصرصورٍ في مرحاض!!.....

قَطَعَ صوتُ الموسيقا وَتَوَّقُف الرقص وَتَقَـدَمَ رجـلُ سـمينٌ أخَذَ الشرابُ منه نصيباً لَمْ يصل لحدِّ السكر ووقف وَسَطَ القاعةِ وَرَفَعَ الكأسَ وَمَالَ برأسِه نَحْوَ العروسين وَقَالَ:

- مبارك زواجكما.

ثُمَّ وَهُوَ يَنْظُرُ إلى مازن:

- إليك يا سيد مازن أهدي هذه الأبيات.

فانتبه الجميع وَتَحَفَّزَ للاستماعِ؛ فَرَشَفَ رشفةً من كأسه؛ وَقَالَ:

خذ نصح قولي في المحبة أو دع إلَّمْ تَمُتْ وجداً فإنك مــدعِ

انتبه علاء وَحَدج الرجل بنظـرةٍ ثاقبـة؛ واعتـدل في جلـسته وتهيأ للاستماع؛ فَهُوَ يحفظ هذه القصيدة.

ثُمَّ أعادَ الرجلُ السمينُ و زاد:

خذ نصح قـولي في المحبـة أو دعِ إلَّمْ تَمُتْ وجـداً فإنك مــدعِ

ليس الغرام نحول جسمك دائمـاً كلا ولا كثر البكى و الأدمعِ

الحبُّ ما ....

سَكَتَ الرجـلُ وكأنَّـه حـاول أن يتـذكر بقيـةَ البيـتِ وبـان الارتباك عَلَىْ محياه، فَحَاوَلَ التذكر وأعاد:

ليس الغرام نحول جسمك دائماً كلا ولا كثر البكى و الأدمعِ

الحبُّ مَاْ ...

فوقف علاء يعتريه بعض التردِدِ والخجلِ، وَقَالَ:

ليس الغرام نحول جسمك دائماً كلا ولا كثر البكى و الأدمـعِ

الحـب مـا أفــناك منـه قليلــه فذهلت حَتّى لا تجيب ولا تعي

عِنـدهَا ارتفعـت تأوهـات الحـاضرين، وَمَـدوا رؤوسـهم لاستطلاع هذا الشاب لكنّ الرجل السمين تقـدمَ نحـوه وَهُـوَ يرشف من كأسِه، وَقَالَ له:

- عفاك يا شاطر!!

ومد يده إلى جيبه وأخرج بطاقة ودسها بِيَدِ علاء؛ وَقَالَ:

- هذا عنواني يا شاطر مر بي إلى المكتب لا بـدَّ أنـك طالـب جامعة.

ثُمَّ عطف برأسه جانباً نَحْوَ الحضور؛ وَقَالَ موجهاً الحـديث إلى علاء:

- أتعرف من قائل هذه الأبيات يا شاطر؟

افترَ ثغرُ علاء، وَقَالَ بثقةٍ أكبر:

- إنّه ابن الفارض يا سيدي!!

- عفاك يا شاطر عفاك !!.....

تمعنت لمياءُ علاءَ بنظرها وَلَمَحَ هُوَ ذَلِكَ وَرَاْحَ يتفحصها بقوةٍ وَكَانَ شيئاً قَدْ اطمأَنَّ في داخله، وتوجس أن تفلـت زمـام هـذهِ النظرة منه وخيل إِلَيْهِ أَنَّه قَدْ قَطَعَ شوطاً كبيراً في النجوى، فَرَنَـا

نحوها بنظره وَهُوَ يسير، فطالعته بالنظرةِ نفسها إلى أن وَصَلَ قُبَالَتَهَا وَقَالَ لَهَا ساهماً:

- لَنْ أستطيع النوم الليلة يا لمياء!!

فاندفعت تخفي ابتسامتها وقالت:

- لماذا يا أستاذ علاء ؟

ساد الصمت ودبت الحياة في قلبِه وراحت تَسيل خارجَ جسده، فَقَالَ بصوتٍ هامس:

- كنت أردد شعراً عن الحب لكن بقلبٍ حزينٍ، فطوبى لحزنٍ يوصلُ إلى الحبِّ ولمعت عيناه بالحزنِ أكثر ورأت لمياءُ عينيه المعذبتين عَلَىْ هيئة مغايرةٍ للحالةِ التي ظَهَرَ بها سابقاً، فأسفت لحالِه لكنّها لَمْ تظهر أي مشاعر تذكر، فاغتمَّ وَعَادَ يَجْلِسُ ولم يكن في الوقت متسع، فَقَدْ تهيأ العروسان للمغادرة وبدأ الحضورُ بالانسحابِ بَعْدَ تقديم التهاني.....

سَرَقَ علاءُ نظرةً أخيرةً من لمياء وَهُوَ يغادرُ القاعة بَعْدَ أن قَدَّمَ التهاني للعروسين، ثُمَّ تَسَلى بالنظرِ إلى صفِ الإنارةِ المتلألئة عَلَىْ طولِ الطريقِ المرصوفِ المؤدي إلى خارجِ المزرعة واقتنع وَهُوَ يغادرُ أنه لَمْ يكن سوى شخصاً عابراً في حياة هؤلاء

الأغنياء لا قيمة له؛ ولا معيار،فأبدى حسرة وتأسفاً لحالِه وتابعَ سيرة حَتّى وَقَفَ عَلَىْ باب المزرعة الـذي انـدفعت منـه سـيارة أجرة تقل صديقات هدى الثلاث وتغيب بهم في الظلام...

عرضَ الرجلُ السمين وزوجته - بَعْدَ أن رأياه يقفُ جانباً – عَلَىْ علاء أن يوصلاه بطريقهما فَوَافَقَ مُمتَناً، لكن الرجل السمين كَانَ يقود مندفعاً واثقاً أضفى الشراب عَلَيْهِ ثقـة بالغـة لَمْ تكـن تخلو من خطورة، فَجَلَسَ في الكرسيِ متحسباً؛ إلا أنَّه حِيْنَ رَفَعَ رأسه نَحْوَ مرآة السيارة الداخلية رأى وجه المـرأة التـي تَجلـسُ أمامه، فَبَدت بعينـين عـسليتين راحـت تلتهمانـه وأنـف دقيـق ممشوقٌ نَحْـوَ الأعـلى كـأنوف الفرنـسيين؛ وفـمٌ صـغيرٌ ممتلـئ خُضِبَ بحمرةٍ مفرطةٍ واتشح الذقن بعنقٍ ممتلئ.....

لم تكن المرأة غير زوجته الثانية والتي تـصغره بثلاثـينَ عامـاً ترتدي لباساً أنيقاً ثميناً وأساور لفَّت ساعديها المكتنزين؛ وَحُلِيَّاً لفَّت عنقها الممتلئ وَقَدْ استمرت المرأة عَلَىْ تتبعه بنظراتٍ مليئة بالنشوة، مليئة بالترنحِ، فَقَدْ صَدَرَ عنها من أثـرِ الـشرابِ زفـرة موجعة، ثُمَّ تأوه مغرٍ وكَانَ زوجها يـشاركها النـشوة، فارتبـكَ علاءُ وأطرقَ رأسه، فَرَأى بعضَ زجاجاتِ الشرابِ ملقـاة بَـيْنَ

قدميه بَيْنَ ممتلئة ونصف ممتلئة، فَأَخَذَهُ الخـوفُ وبقـيَ متوجـساً ينتظرُ وصوله إلى أولِ شارعِ " الزاهرة القديم " بينما الزجاجات تَتَحركُ بَيْنَ قدميه بحرية، وَحِيْنَ استقر بهم الحال مكـان نـزولِ علاء شكرهم عَلَىْ عجل وَفَتَحَ الباب مرتبكاً، فَعَلِقَ كيسٌ أسودَ بحذائِهِ وسَقَطَ خارجَ الـسيارةِ أثنـاءَ نزولـه؛ ولم يـترك الرجـلُ السمينُ فرصةُ لعلاء لتدارك الموقف؛ إذ اندفعَ بـسيارته يـسابقُ الريحَ.

انحنى علاءُ يلتقطُ الكيسَ ليفتحه، فَوَجَدَ فيه زجاجة شراب وبعضَ المقبلاتِ البسيطةِ، فَحَمَلَهَـا قلقـاً وَدَلِـفَ نَحْـوَ شـارع "مخيم اليرمـوك "، وَدَخَـلَ المنـزلَ ذي البـاب المفتـوح كفنـدقٍ شعبي لكنّه كَانَ خالياً تماماً، فكلّ الطلاب قَدْ غادروا إلى بيوتهم المتناثرة في قرى الريف، فَدَخَلَ غرفته وَبَدلَ ملابـسه واسـتحمَّ بسرعةِ وَعَادَ ليستلقي عَلَىْ سريره وحيداً.....

بغتة استولى عَلَىْ علاء قلقٌ مرعـبٌ وتـذكر أن والديـه الآن يأكلُ القلقُ صدريهما ويـسحقُ الخـوفُ قلبـيهما، فانهـار خوفـاً عليهما كَمَا ينهارُ منزلٌ آيل للسقوط وانتابته مشاعر شتى؛ لكنّـه تَوَثَّبَ ليصارعَ القلقَ والخوفَ وطمأنَ نفسه قائلاً:

- يجب أن يعلما أنني رجلٌ وليسَ بطفل صغير ويجب أن لا يخافا عليَّ !!

ابتعدَ القلقُ عن صدرهِ واطمأن لوحدته، ثُمَّ طالعته رغبة في النظرِ إلى محتويات الكيس الذي سَقَطَ من سيارة الرجلِ السمينِ ثانية، وَفَتَحَهُ وأمسكَ بالزجاجةِ وَقَرأ مَا كُتِبَ عليها فَعَرَفَ أنَّها زجاجة خمرٍ أسقط الكيس من يده فوق الطاولة، فَهُوَ لَمْ يشرب سابقاً لكن خَطَرَ لَهُ أن يتذوقَ هذا الشراب اللعين، فَأحضَرَ كأساً وَوَضَعَ فيه بعضَ قطع الثلجِ وصَبَّ فَوقه الشرابَ ورفعه نَحْوَ فمه، ثُمَّ قال:

- أستغفر الله !!!!

وَرَشَفَ رشفةً واحدةً كادَ أن يحترقَ بلعومه فَزَفَرَ متوجعاً، ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَىْ نفسه وابتلع باقي الكأس دفعة واحدة، فَكَادَ يختنقُ صدره ويحترقُ جوفه، فأسعفَ نفسه بشربِ نصف كأسٍ من الماءِ البارد.

انبعثَ الارتياحُ في نفسه، لكنّه ارتياحٌ لا يخلو من حنقٍ عَلَىْ الدنيا، واكتنفَ المنزل فرحٌ وبهجة وانحسرت الظلمة من حوله، فَغَدَا طرباً مبتهجاً، وَخَرَجَ إلى باحة المنزل الواسعة وَمَدَّ

نَظَرَهُ نَحْوَ أجمة من النجوم وتخيلها كمجموعةٍ من السمار جاءت تنادمه ليلته، وَشَعَرَ أنَّه يَطيرُ نحوهم ويتضخمُ كعملاقٍ فتي يغرفُ من الحياةِ مذاقات مختلفة؛ ونجوى تسامره، فتزيد من سكر روحه.....

..... وأخيراً ظَهَرَت لمياء بفستانِها الأبيضَ وراحت تَفُكُّ عقدة المنديل الأصفر الذي يلفُّ جديلتها، وتركته ينتشرُ كالعطرِ، ثُمَّ دعته بإصرارٍ إلى شيءٍ ما، فَقَطَعَ شوطاً شاسعاً في نجواه حَتّى ارتعدَ فجأة لِخاطرٍ مَرَّ أمامه، فتذكرَ صورةَ زوجةِ الرجل السمين وَهِيَ تلتهمه بنظرها، فَهَزَّ رأسه ضاحكاً وَقَالَ:

- نعم إن الجنس هُوَ التفسير الأكثر إنصافاً لكلمةِ حب !!

لكنّه انكمش فجأة؛ وسادَ الصمتُ؛ وانطفأت البهجة؛ والنجوى؛ وغادرت النجوم مجلسه التي عَلَىْ شكل سمار ليل حِيْنَ سمع صوت المؤذن ينادي:

- الله أكبر الله أكبر....

انكفأ نَحْوَ الغرفة؛ وانكفأ مَعَه صمتُ العالمِ كلّه؛ وغرابته المذهلة وتساءل عن سببِ فعلتِه النكراء، لكن سرعان ما وَجَدَ نفسه بِحَلٍّ من الجوابِ، فكلّ شيءٍ قَدْ ذابَ في الليلِ وتكاثفت

الرؤية حَتّى لَمْ يَعد يميزُ شيئاً ولم يَجِدْ ما يقـول لنفـسه أو يحـضَّ بذكرى سعيدة مَعَ رجلٍ قهرَ الفصامُ جمجمته، فَكَانَ عَلَيْهِ لزامـاً أن يتحمل هذا القهر أو مَعَ أمٍّ نَالَ منها العطف والرعاية؛ لكنّها مقيدة بفقرٍ مدقع وأخيراً لَمْ يجد بُدَّاً وَهُوَ يصغي لصوت الإمـام وَهُوَ ينهي آذان الفجر، فَرَمَى بنفسه عَلَىْ السريرِ واستسلمَ لنومٍ عميقٍ عميق.....

أما هناك وفي القريةِ النائمـةِ فَقَـدْ اغرورقـت عينـا سـلمان بالدموع، حاول أن يضبطَ أعصابه ويحافظ عَلَىْ غموضها وَهُـوَ يَنْظُرُ إلى خديجة التي حَطَّمَ القلقُ صدرها ونهشَ الخوفُ قلبَهـا، فاقتربَ منها وربت عَلَىْ كتفها، فَمَالـت برأسِـها ووضـعته عَـلَىْ كتفه، فوصلت إليها رائحةُ الترابِ المـشبعة بهـا ملابـسه، فَقَـدْ أمضى سلمان الحسن طيلـةَ اليـوم يـروي شـجيراته التـي ازداد نموها واكتسبت نضارةً ملحوظةً.

أغمضت عينيها وراحت بحركةٍ عصبيةٍ تنتـزعُ نفـسها مـن قَلَقِهَا وَهِيَ تستمع إلى سلمان يقول:

- تعب القلب يا خديجة !!

- ليسَ بمقدوري أن أصبر !!

أجهشت خديجة بالبكاء، ثُمَّ سَادَ صمتٌ مرعبٌ حِيْنَ سمعت سلمان يشعلُ سيجارته ويَمُجُّ منها بقوة، ثُمَّ يقول:

- " لَقَدْ تعمدوا منعه من المجيء الليلة " !!

كان الخوفُ يصعدُ بوتيرةٍ عالية إلى قلب خديجة لكنّه تحولَ إلى لامبالاة وَهِيَ تستمع إلى سلمان الحسن يقول:

- " إنهم يتآمرون عَلَىْ مشروعي " !!

وهو يفتحُ عينيه عَلَىْ اتساعها:

- " حَتّى ابنك الذي يدرسُ القانون الوضعي يقفُ معهم ضدي "!!

ثُمَّ هرولَ مسرعاً نَحْوَ السلم الخشبي وَصَعَدَ السطح كبهلوانٍ؛ فَتَبِعَتهُ خائفة وتَابَع قوله:

- " هل أحفِرُ نفقاً تحت المنزل، أم أنَّ المنزل قَدْ تحولَ إلى طائرة "!!

ورفع يديه وتابع:

- " مشروعُ الناقةِ قادمٌ ومشروعُ النهرِ الجاف تحول إلى أمعاءِ دجاجة "!!

- " هل بقي في الصحنِ غير الخس والليمون " **!!**
- " يا ظالم تدَّعي أنَّك رسولٌ بعثت للترابِ وأنت " أبو لهب "
- " واحدة**....** اثنتان**.....** ثلاث "

ثُمَّ جلس عَلَىْ السرير وتابع

- " مئتان وستون ألفاً وتسع نجماتٍ بيض "
- " سلامات **....** بطاطا "**.....**

تراجعت خديجةُ مذعورةً تنوحُ بِصوتٍ مخنوقٍ وَهِيَ تلطم عَلَىْ رأسها وتنظرُ نَحْوَ زوجها سلمان الحسن الذي ذكرها هذيانه بحالتِه حِيْنَ زاروه في المشفى بَعْدَ أن بعثت وزارة التعليمِ بخطابٍ إليهم تعلمهم فيه أن**:**

" الطالب سلمان الحسن الموفدُ ضمنَ بعثة دراسية لدراسة الطب في الاتحاد السوفيتي قَدْ أصيب بمرضٍ عقلي لا يمكن مَعَهُ إتمام دراسته ومرفقاً طياً تقرير لجنة الأطباء لِذلِكَ تمَّتْ إعادته إلى البلادِ وأودعَ المشفى للعلاج "**.....**

كلّ شيء يجري إلى الوراء كلّ شيء يعودُ كَمَا كَانَ سابقاً وعرباتُ القطارِ تُوَّدِع أعمدةَ الكهرباءِ والهاتف واحداً بَعْدَ الآخر حِيْنَ ذهبوا لزيارته أول مرة لكن أمّه لَمْ تكن معهم، فَقَدْ

ماتت دُوْنَ أن يعلمه أحد ما بذلك والغريب أنه لَمْ يسأل عنها ولم يتفقدها بينهم، بَلْ قال لهم عبارة مازالت تطرقُ ذاكرةَ خديجة:

- " سلامات ... بطاطا ".

وبعدها امتنع إخوته عن زيارتِه وتركوه كَمَا كانوا سابقاً تَحْتَ رعايةِ خديجة مِنْذُ خروجه من المشفى بَعْدَ عام.....

أذعنت خديجة لحالتِه، ثُمَّ تقدمت نحوه، واستدرجته بصبرٍ وأناة وطلبت إِلَيْهِ النزول عن السطحِ، فابتسمَ لَهَا وانتزعَ ذراعه من قبضتِها وَقَفَزَ عن السطحِ، فَشَهَقَتْ خديجةُ واندفعت تهرولُ عَلَىْ السلمِ الخشبي وكادت أن تقع لكنّها فوجئت به يَقِفُ وَسَط ساحة المنزل مبتسماً، وَقَالَ لها:

- انظري " سلامات ... بطاطا "

وبدا القمرُ يودع السماءَ الصافيةَ بسحبٍ سوداءَ عبرت فغطته، وترامى إليها صوت شخيره بَعْدَ أن أقنعته بتناولِ حبتي دواء مهدئ، فَغَطَّ في نومٍ عميقٍ يلفُّ جَسَدَهُ كقطٍ هزيل.

أدارت وجهها نحوه بحنانٍ، ثُمَّ داعبت نهايةَ ذوائبه ومنحته قبلةً صغيرةً ونسيت علاء وتأخره وتركت العشاءَ تِلْكَ الليلة للقططِ وانشغلتْ بالبحثِ عن سيارة أجرة تنقلها إلى العاصمة.....

كانت المدينة الكبيرة تطردُ النعاسَ من أعينِ الناس، وتبعثُ بأصواتِ الباعة المتجولين عَلَىْ المدى، وترسلُ رائحةَ الخبزِ الزكية تداعب أنوفَ المارة حِيْنَ دخلتها السيارة التي تقل خديجة وزوجها الذي يغطُّ بنومٍ عميق وتوجهت به إلى المشفى، وهناك عرضت بعضَ التقارير التي سُلِمَتْ لهم وَقتَ خروجه فبدت قديمة جداً لكن تم توقيع طلب استلامه من الطبيب المناوب وَدَخَلَ في بهوٍ طويلٍ ودعته خديجة وَهِيَ تبكي، لكنّها وَهِيَ تغادر قَالَتْ لنفسها:

- سامحني يا سلمان!!!

ولم تصل الشمس إلى كبدِ السماء حَتّى كانت خديجة قَدْ وصلت أول شارع" مخيم اليرموك" ، فتوجهت نَحْوَ المنزل الذي يقيم به علاء، وولجت فيه.....

كان علاءُ قَدْ استيقظ باكراً بَعْدَ ليلة لَمْ يَنَم فيها سوى أربع ساعات وَوَجَدَ نفسه في كآبة، فأسرعَ وَنَظَّفَ غرفته وخبأ باقي الزجاجة واستحم، ثُمَّ ارتدى " قلابية " وَجَلَسَ لا يكلفُ نفسه عناءَ التفكير في شيء.....

ترامى إلى سمعِه وَقعُ أقدامٍ عَلَىْ بلاطِ باحةِ المنزلِ، فَخَفَقَ قلبُه وتطلعَ نَحْوَ القادم الجديد وَحِيْنَ رأى أمّه عضَّ عَلَىْ شفته

السفلى واجتاحه أسف بالغ وظنَّ أن أمّه جاءت لتطمئن عَلَيْهِ كَمَا حَصَلَ سابقاً لكنّه وَقَعَ في حيرة وتساءل، فَقَدْ بدت أمّه بعينين ذابلتين ترتدي ملابسَ أقربَ إلى الرثة منها إلى القديمة، فَحَزِنَ لأجلها وَزَفَرَ بيأسٍ.

ثُمَّ قَالَ لَهَا مرحباً:

- أهلاً يا أمي تفضلي.

وتابع مرتبكاً:

-لم يكن بمقدوري السفر البارحة عندي محاضرات كثيرة لَمْ انتهِ منها بعد!!

كانت خديجة صامتة ساهمة ولم تجبْ، فَمَدَّ علاءُ رأسه نحوها مستفسراً عن سبب صمتها فَقَالت بصوتٍ متهدجٍ حزين بَعْدَ أن لمحت حيرته:

- لَقَدْ انتكست حالة أبيك النفسية ونقلته إلى المشفى صباح هذا اليوم!!

تجلت نظرات اهتمام عَلَىْ وجه علاء، ثُمَّ تبعتها نظرات انكسار وأسف، وزمَّ شفتيه، ثُمَّ هَزَّ رأسَه، وَقَالَ:

- نعم يا أمي لا داعي للأسف لا شكَّ أن إخراج والدي من حالته بحاجةٍ إلى مستشفى، فلنحتمل بعضَ الألمِ لنصلَ إلى الشفاء!!

ثُمَّ قَامَ إليها وأجلسها وَهُوَ يربت عَلَىْ كتفها، ثُمَّ قبَّلَ رأسها وانطلقَ يُحَضِرُ الإفطار، لكنّها لَمْ تأكل سوى لقيمات معدودة، وفكت رباط كيس نقودها ودست في جيب علاء ثلاثمئة ليرة، وغادرت برفقته حَتّى أوصلها إلى الحافلة التي انطلقت بها عائدة لبيتها.....

بعد مغادرة أمّه ازدادت نفسه كآبة وأحس أنَّه ليس علاء السابق، بَلْ إنَّ تغيراً قَدْ حدث له، فَقَطَعَ الطريق نَحْوَ أول منعطفٍ نَحْوَ " باب الجابية " مجتازاً سوقَ " النحاسين " يسيرُ بأناة، لكنّه فوجئ بالمحالِ التجاريةِ وَقَدْ أغلقت أبوابها واستدرك لاحقاً أن اليوم هُوَ يوم الجمعة، فتابعَ طريقه حَتّى وصل إلى ساحة " المرجة " وهناك كانت المرارة واليأس قَدْ أجهزت عَلَىْ آخر فسحة أملٍ لديه لأنَّ صورةَ حفلة زفاف مازن وهدى مازالت ماثلة أمام عينيه وتألم للفارقِ الكبير بَيْنَ حالتِه وحالة المدعوين، ثُمَّ بشيءٍ من السرعة مَدَّ رأسه نَحْوَ لوحة

كبيرة علقت عَلَىْ باب سينما " غازي "، فـأسرعَ للخـروجِ مـن حالتِه وَدَخَلَ إليهـا وَقَـصَمَ ظَهْـرَ النهـار وَهُـوَ يـشاهد عرضـاً متواصلاً لأفلام سينمائية.....

صباح اليوم التالي وَجَدَ علاءُ نفسه أمامَ كليةِ الآداب ينتظرُ لمياء ولم يَدمْ انتظاره طويلاً إذ أقبلت نحوه بمفردها، فانتشرت السعادة عَلَىْ وجهه، فتابعها حَتّى اقتربت منه، فاعترض طريقها قائلاً:

- آنسة لمياء.

فوقفت واستدارت نحوه بابتسامة ونظرت إِلَيْهِ بعينين باسمتين وَهَزَّت رأسَها منصتة فَقَالَ لها:

- أريد أن أسألك سؤالاً أَرَّقَ ليلي البارحة!!

فَنَظَرَتْ مندهشةً وأصغت:

- هَلْ كنت تعتقدين أنني كنت العاذل بَيْنَ مازن وهدى؟

ابتسمت وقالت:

- لا.

وَهَمَّت بالسيرِ لكنّه عَادَ واعـترض طريقهـا ثانيـة ويـذكرها باتهامها لَهُ بقسوةِ القلبِ في لقائهما السابق، فقال:

-هل أنا قاسي القلب؟

وَشَى ثغرها بابتسامة عريضة وقالت:

- من يحفظ أشعار ابن الفارض لا يتصفُ بقسوةِ القلبِ!!

احتقنَ وجهه فرحاً ودعاها إلى فنجانِ قهوة فاعتذرت لانشغالها بالمحاضرة، فاغتمَّ قليلاً لكنّه حافظَ عَلَىْ سعادته وقفلَ راجعاً لكن وفي طريقِة لكلية الحقوق تذكر ما حصل لَهُ مَعَ الرجل السمين في ليلة الحفلةِ فَأَهمَلَ محاضراته وَقَرَّرَ أن يزوره في مكتبه ومنَّى النفسَ بأحلامٍ كبيرة.....

َوقَفَ أمام السكرتيرة في مكتبِ الرجلِ السمينِ حَيْثُ الهواء الصادر عن المكيف يغمرُ المكانَ ببرودةٍ منعشةٍ لطيفةٍ تجلس في وسطه فتاة شابكة أصابع يديها إلى الأمام وَتَرَكَتْ شعرها الأسود اللامع ينسابُ عَلَىْ كتفيها وترتدي نظارة طبية رقيقة العدسات بإطار ذهبي أنيق.

قَدمَ علاءُ نفسه إليها بأدب، ثُمَّ دَخَلَ عَلَىْ مكتبِ الرجلِ السمينِ الذي هبَّ لاستقباله ودعاه للجلوس، فجلس وَرَاْحَ بصره يستعرضُ صورة لشابٍ نحيل الجسد يحتضنُ عوداً، ثُمَّ رَاْحَ ينقل نَظَرَهُ بَيْنَ صاحب الصورة والرجل السمين، فَلَم

يَشُك في أنَّه الرجل السمين نفسه إذا ما حذف البطن الواسعة والعجيزة الضخمة، ثُمَّ سأله:

- هذا أنت أليس كذلك؟

فأومأَ الرجلُ السمينُ برأسه موافقاً، ثُمَّ أردفَ علاءُ قائلاً:

- وتعزف عَلَىْ العود أيضاً؟

- كنت أعزف عَلَىْ العود سابقاً أما الآن فقد....

فَقَاطَعَهُ علاء:

- والآن هَلْ توقفت عن العزف؟

فقال الرجل السمين ممازحاً:

- لَقَدْ رفضني العود يا علاء انظر إلى بطني!!

لكن رائحة القهوة التي تسربت إلى أنفهِ جعلته يَمِيْلُ برأسه نَحْوَ مصدرها وَرَاْحَ يراقبُ الفتاةَ التي هَمَّت بوضعها أمامه، فأسرعَ الرجلُ السمينُ وطلبَ منه أن يشرب قهوته سريعاً لأنَّه سيأخذه معه إلى مكانٍ لَمْ يخبره عنه، بَلْ تَرَكَهُ لَهُ كمفاجأة.....

ووجد نفسه في شارع " مخيم اليرموك " وَرَاْحَ يتساءل عن سببِ دخولِه هذا الشارع لكن نسمات مكيف السيارة الباردة

لفحته برفـقٍ، فَعَـادَ واسـترخى عَـلَىْ الكـرسي وَقَـدْ دغـدغت البرودة مفاصله وَشَعَرَ بنعاسٍ سيما أَنَّه لَمْ يَنَم البارحة جيداً بَيْـدَ أن أفكاره لَمْ تدع لَهُ هذه الطمأنينة لتدوم طويلاً ولا هذا النعاس ليترجم واقعاً إذ شغلته أفكاره مرةً أخرى عن سبب قدومِـه إلى هذا الشارع....

وانعطفَ الرجلُ السمينُ بسيارتِهِ يميناً ثُمَّ يساراً ثُـمَّ اسـتقام بسيرِه إلى أن وَصَلَ إلى محـضر سـكني قَيْـد الإنـشاءِ وَنَـزَلَ مـن سيارته وتبعه علاء وَرَاْحَ يُراقبِ رجلاً اندفعَ إلى لقائـه مـسرعاً يرحبُ بِهِ بصوتٍ عالٍ:

- " أهلين وسهلين بتاج راسي أبو أمين ".

عِندهَا ابتسم علاء فَقَدْ تعرّف أخيراً عَلَىْ اسـم ابـن الرجـل السمين ولم يَجِد حرجاً إذ أسرع حَتّى جارى بخطواتِه خطـوات أبي أمين الذي سارعَ وَقَدَّمَ لعلاء الرجل الذي هبَّ لاستقباله:

- سيد علاء أقدمُ لك المهندس سليم.

ثُمَّ أردف:

- المهندس سليم هُوَ من يشرفُ عَلَىْ هذا المشروع السكني.

فابتسم علاء وَمَدَّ لَهُ يَدَه مصافحاً:

- أهلاً أستاذ سليم.

ثُمَّ بتواضع:

- أنا علاء الحسن طالب في كلية الحقوق.

- أي سنة ؟

- الثالثة.

- أتمنى لك التوفيق.

ودعاهما إلى غرفة مسبقة الصنع مخصصة لمثلِ هـذه المـشاريع وَقَدَّمَ لهما بعض العصيرِ وَرَاْحَ يشرحُ لأبي أمين خطوات العمل والمرحلة التي وصلوا إليها.

كانَ علاءُ عظيم الشعورِ بحالةِ فقرهِ، فَجَلَـسَ منـصتاً يرثـي لحاله مقارنة برجلٍ مثل أبي أمين، فاغتمَّ قليلاً، وَزَفَرَ بهدوء، ثُمَّ عَلَّلَ لنفسِه أنَّه واحد من ملايين الناس يعيشون الحالـة نفـسها، فتابعَ صمته يَنْظُرُ إلى المهندسِ وَهُوَ يتابعُ شرحَ مراحـل العمـل إلى أن سَأَلَ أبو أمين عـن " سـعيد " مراقـب العـمال، فارتبـك المهندس قليلاً، ثُمَّ قال:

- لَمْ يحضر اليوم!!

استشاطَ أبو أمين غضباً وَرَاْحَ يزبدُ ويتوعدُ، ثُمَّ قال:

- إلى متى سنتحمل هذا التسيب؟

- ما علاقتي بظروفِ أمّه وطلاقِها من زوجِها؟!!

ثُمَّ أردف:

- اطرده فوراً وابحث عن مراقبٍ جديدٍ للعمالٍ أفهمت؟!!

امتثل المهندس سليم لطلبه قائلاً:

- " حاضر تاج راسي ".

ثُمَّ هَبَّ أبو أمين واقفاً وَوَدَّعَ المهندس سليم وتبعه علاء وغادرا المكان.....

وفي طريق العودة رَاْحَ أبو أمين يتحدثُ بغضبٍ عَلَىْ تكرار غياب " سعيد " مراقب العمال وَرَاْحَ يسترسلُ في شرحِ حالته الخاصة بطلاقِ أمّه رغم تقديره لظرفِه لكن غيابه المتكرر حالة لا يمكنُ الصبر عَلَيْهَا أكثر من هذا.

ثُمَّ استدار نَحْوَ علاء وَقَالَ له:

- أتعرف أني أعطيه مرتباً لا يحصلُ عَلَيْهِ خريجٌ جامعي!!

نَظَرَ علاءُ نَحْوَهُ وَهَزَّ رأسَه كأنَّه يريدُ منه أن يُكملَ فَقَالَ أبو أمين:

- إنَّه يتقاضى ثمانية آلاف ليرة!!

ثُمَّ هَدَرَ بصوتِه:

- هذا أكبر من راتبِ جامعيٍ حديث التخرج أليسَ كذلك؟

هَزَّ علاءُ رأسه موافقاً وَوَجَدَ في ذَلِكَ فرصةً لفتحِ حديثٍ مَعَهُ، فَقَدْ كَانَ علاءُ يخفي رغبةً جادةً في العملِ فَقَدْ وَصَلَ حَدّ الفقرِ به درجة لَمْ يَعد يَتَحَمَّلُ تبعاته، ثُمَّ قَالَ له:

- سيد أبا أمين أنا أبحثُ عن عملٍ أستطيع من خلالِه أن أتابعَ دراستي، فَهَلْ تتكرم عليَّ وتمنحني هذه الفرصة كبديلٍ عنه؟!!

توقف أبو أمين بسيارته جانباً، ثُمَّ قال:

- علاء لما لَمْ تخبرني بذلك ونحن هناك ؟!!

ثُمَّ انعطفَ بسيارتِه عائداً وَهُوَ يكرر:

- سامحك الله يا علاء سامحك الله !!

ثُمَّ استدرك وَقَالَ له:

- كيفَ تستطيعُ أن تتابعَ دراستك والعمل من الصباح إلى المساء ؟!

قال علاء:

- سَأَتَدَبَرُ أَمْري وَسَأَحصل عَلَىْ المحاضرات من زملائي لا تقلق!!

حينما وَصَلَ أبو أمين إلى هناك عَادَ المهندسُ يرحبُ به من جديد وَقَدْ ارتسمت علامات الدهشة عَلَىْ وجهه مستغرباً سَبَبَ رجوعِهِ فوراً؛ لكنّه عَادَ واطمأن حِيْنَ أبلغه أن علاء سيكون هُوَ مراقب العمال الجديد مِنْذُ الغد.

وَبَعدَ أن قفَلَ أبو أمين راجعاً كَانَ الساعة قَدْ تجاوزت الثانية ظهراً فانعطفَ بسيارتِهِ وتوجه نَحْوَ خارج المدينة سالكاً لطريقِ " المطار " حَيْثُ انعطفَ واخترق صفاً من الأشجار إلى أن وَصَلَ إلى " فيلا " تكتنفها حديقة غَنَّاء وأوقفَ سيارته جانباً وَنَزَلَ منها وَدَعَا علاء إلى الدخولِ.....

عند دخول علاء برفقةِ أبي أمين صالة " الفيلا " كانت زوجته باستقبالِه وحيَّت الضيف بشكلٍ عابرٍ أَجفلَت حواسه، لكنّه اندفعَ ليلبي رغبةَ أبي أمين بالجلوسِ ريثما يجهز الغداء، ثُمَّ انسحب أبو أمين وخلفه زوجته وتركا علاء يَجْلِسُ في الصالة وحيداً.

اضطربت نفس علاء وَهُوَ يَجْلِسُ وحيداً وامتلأ حقداً وحنقاً عَلَىْ الدنيا إذ أحسَّ أَنَّه مهملٌ ومحطّ للسخرية، فَقَدْ

تركوه وحيداً لكنّه كَانَ كَمَنْ يُمسكُ عَـلَىْ حبـلِ نجـاة بأسـنانِه وَهُوَ يتأرجح في الهواء، ففرصة عمل كَهذه لَـنْ تتكـرر، فانكفـأ يلتهمُ بنظراته الصالة الضخمة ولم يكلف نفـسه عنـاءَ التفكـير باستقبال سيدة البيت لَهُ بشكلٍ عابرٍ، بَلْ رَاْحَ يؤكـدُ لنفـسه أن عَلَيْهِ أن يكافح بصلابة وعناد وعليه أن يتحدى النـاس والحـظ والحياة إلى أن دَخَـلَ الخـادمُ يـدعوه إلى الغـداء، فَمَـشَى خلفـه ليفتحَ عينيه باندهاش وَقَدْ بَدَّلَ أبو أمين ملابسه، فارتدى لباساً منزلياً مريحاً وَجَلَسَ إلى المائدة الضخمة.

وأقبل عـلاء عَـلَىْ الطعـام بـنهمٍ بيـنما أبـو أمـين استرسـلَ بالحديثِ عن نفسه وكفاحه حَتّى وصل إلى مـا هُـوَ عَلَيْـهِ الآن، ثُمَّ نَظَرَ نَحْوَ زوجته وَقَالَ لَهَا وَهُوَ يشير إلى علاء:

- لَقَدْ عينت علاء مراقباً للعمال!

فابتسمت لَهُ وعادت لتكملَ طعامها بهدوءٍ دُوْنَ اكتراث إلى أن تراجعَ أبو أمين إلى الخلف وهبَّ واقفاً، وَهُوَ يقول:

- " الحمد لله كفاها الله اليوم ".

لمحه علاء، فارتبكَ في أن يتراجع مثله؛ أم يتابع لكن حيرتـه هدأت قليلاً حِيْنَ حَثَّته سيدة البيتِ عَلَىْ البقاء عَلَىْ المائـدة، ثُـمَّ

أخبرته أن أبـا أمـين لا يأكـلُ كثـيراً عِنْـدَ الظهـيرة وأن وجبتـه الرئيسة هِيَ العشاء.

ذَهَبَ أبو أمين ليغسل يديه وتركهما وحيدان، فازدادَ ارتبـاكُ وحرج علاء؛ وبقي مطرقاً يزدردُ الطعامَ إلى أن عَادَ أبـو أمـين، فهبَّ واقفاً وَتَرَاجَعَ عـن المائـدةِ حامـداً شـاكراً وَرَاْحَ ليغـسل يديه، ثُمَّ ليعود ويستأذن في الانصرافِ ليرى نفسه عَـلَىْ ناصـية شارعٍ لا يعرفُ اسمه ومكانٍ لَمْ يره من قَبْل إلى أن أسعفته سيارة أجرة نقلته إلى المدينةِ وعـرف مـن سـائقها اسـم المكـانِ الـذي يسكنه أبو أمين.....

وَوَصَلَ إلى شارع " مخـيم اليرمـوك "، فَنَـزَلَ مـن سـيارة الأجرة التي تقاضى سائقها أجرةً مضاعفةً لبعـدِ المكـانِ الأمـر الذي أوقَعَه في حَرَجٍ كبيرٍ لكنّه عَادَ وهَدَأتْ نَفْسُهُ وَهُـوَ يَـدْخُلُ إلى غُرْفَتِهِ وصديقه خليـل الـذي يـشاركه الغرفـة لَمْ يَعُـدْ بَعـد، فاغتسلَ وَرَاْحَ في نومٍ عميقٍ إلى المساءِ.....

مساءً استيقظَ علاءُ موجعَ الرأسِ متعباً ومـن عجـب أنَّـه كَانَ جائعاً، فأقبل عَلَىْ المطبخ يَبحَثُ عَمَّا يَقْتَاتُ بِهِ، فَلَمْ يَجـد إلا رغيفَ خبزٍ جافاً فأقبلَ عَلَيْـهِ بِـنَهَمٍ حَتّـى شَـعَرَ بِـزَوَالِ وَجَـع

الرأسِ، ثُمَّ عَادَ ليستلقي ويغط بنومٍ عميقٍ ولم يستجب لصديقِه خليل الذي حَاوَلَ إيقاظه من النومِ، فَتَرَكَهُ يُتابعُ نَومَهُ حَتّى الفجرِ.....

استيقظ في صباح اليوم التالي باكراً، فَمَضَى مسرعاً إلى مكان المشروع السكني مشياً عَلَىْ الأقدام؛ إذ رآها فرصةً لتوفير أجرة الحافلة، وَرَاْحَ أثناء مسيره يُمنّي النفسَ بزوالِ هذه الأيام الصعبة من حياته؛ وَتَجَهَّمَ وجهه قليلاً حِيْنَ ذَكَرَ والده وما قَدْ يلاقيه في المشفى، ثُمَّ لاحت علامات الضيق عَلَىْ وجهه، وبدت عيناه حزينتان؛ وقلبه منكسر، لكنّه عَاْدَ وقطع حبل تداعياته وَقَرَّرَ أن يُرَكِّزَ كلّ هَمّه في إنجاز عمله المنوط به وتوفير مبلغ من المال يخرجه من حالةِ الفقرِ التي لَمْ يعد يتحملها، واستأنف مسيرة حَتّى وَصَلَ إلى مجمعِ المشروع السكني وقَدَّمَ نَفْسَهُ للعمالِ المنتظرين عَلَىْ أنَّه مراقبُ العمالِ الجديد بدلاً عن سعيد، فَحَياهُ الجميع، ثُمَّ سأل عن المهندس سليم، فَأُخبِرَ أنَّه لَمْ يحضر بَعْدَ، فَسَارَعَ إلى المكتبِ وَنَظَّمَ جداولَ بأسماءِ العمالِ المتواجدين، ثُمَّ أمرهم بحزم باستغلال الوقت المتبقي لِحضورِ المهندس بترتيبِ مواد البناء، فَقَامَ بتوزيعهم إلى مجموعة ترتب

الخشب في مكان واحد وأخرى ترتبُ الحديدَ وباقي مواد البناء والبقية بإزالة أكياس الإسمنت الفارغة والنفايات المتراكمة.

وتابع علاءُ توثبه للعملِ إلى أن حَضَرَ المهندس سليم، فَفوجئ بالترتيبِ الحاصل للمشروعِ، فانبسطت أساريره؛ وَشَعَرَ بالفرقِ بَيْنَ منظرِ المشروع البارحة ومنظره هذا الصباح، والحقُّ أن تعطل سيارةِ المهندس سليم مَنَحَ علاء وقتاً إضافياً حَتّى استطاع أن ينهي ترتيب ساحة المشروع وَقَدْ لحظ المهندس سليم أن انشغاله بالمشروع قَدْ أنساه الاهتمام بنظافته عَلَىْ الشكل الذي يراه؛ ولاسيما أن هذا المشروع هُوَ الأول لَهُ بَعْدَ تخرجه من الجامعة وَهُوَ فرصة لا تعوض لخريجٍ في إثباتِ كفاءته لكنّه كَانَ يخفي خوفاً لا يستهان به؛ إذ ظن أن السيد أبا أمين قَدْ وَجَدَ في غياب سعيد فرصةً مناسبةً لدسِّ علاء كمراقبٍ للعمالِ ظاهراً ومراقب لَهُ في الخفاء ليعلمَ حقيقةَ مصاريف مشروعه، فاحترسَ منه دُوْنَ أن يُظهِرَ ذلك.

لَبثَ علاءُ في حركةٍ دؤوبة حَتّى مالت الشمس إلى المغيب، فَدَخَلَ إلى غرفةِ المشروع حَيْثُ المهندس سليم ينهي مراجعةَ بعض مخططاته إلى يوم الغد، فانشغل بتدوين أجور العمال

وَوَضَعَ الجدولَ في مصنفٍ خاص وغادرَ المشروع وَتَرَكَ المهندس سليم مَعَ توجسه يَقبَعُ في مكتبه ويلعن حظه العاثر بقدومِ هذا المتطفل عَلَىْ مشروعه.....

حافظَ علاءُ عَلَىْ توثبه للعمل طيلةَ الشهرِ الأولِ دُوْنَ أن يلتفت إلى جامعتِه ولا إلى تذكر لمياء ولم يذكر هدى قط، بَلْ إنّه لَمْ يقابل السيد أبا أمين إلا مرةً واحدةً وللحظاتٍ وخلالها لَمْ يلتفت السيد أبو أمين إِلَيْهِ إلا كعاملٍ في مشروعِهِ لَمْ يلق أيَّ اهتمامٍ ولم يزر والده في المشفى ولم يَعد يكترثُ لشيءٍ إلا للراتبِ الذي سيقبضه بَيْنَ ليلة وضحاها.....

مساءَ يوم الخميس حَظَرَ السيد أبو أمين إلى المشروعِ، فاستقبله علاءُ مرحباً، وَنَزَلَ من السيارةِ وتمشى قليلاً أمام المجمعِ السكني وَسَأَلَ عن المهندسِ سليم، فأخبره علاء أنَّه في أحدِ الطوابقِ مشغولاً بإرشادِ النجارينَ إلى بعضِ التفاصيلِ، ثُمَّ سارع إلى السيارةِ وأَحْظَرَ مبلغاً مِنَ المالِ أخبره أن هذا المبلغ هُوَ عبارةً عن أجورِ العمالِ وبعض دفعات موردي مواد البناء وَغَادَرَ مُسْرِعَاً.....

لم يكن أبو أمين يشك في أن علاء سَوْفَ يعطي المبلغ للمهندس سليم للإشراف عَلَىْ إنفاقه لِذلِكَ أعطاه المبلغ

وغادر، لكنَّ الأمرَ لَمْ يَسِرْ عَـلَىْ هـذا النحـو؛ إذ نـزل المهنـدس سليم من الطابقِ الذي كَانَ فيه وفوجئ بعلاء وَقَدْ جَمَـعَ العـمالَ وَبَدَأ يُوَزِّع عليهم رواتبهم كَمَا هِيَ مرفقة بالجداولِ التي نظمهـا مُحَاسِب الشركة.

لفَّ المهندس سـليم الـذهول وتولتـه الدهـشة والانزعـاج واضطرب أيّما اضطراب وَكَادَ أن يَفقدَ رشده، وَقَدْ لحـظ عـلاء ذَلِكَ لكنّه أهمـلَ النظـرَ إِلَيْـهِ، وَتَرَكَـهُ يأكـلُ الانزعـاجُ صـدرَه ويلتهمُ القلقُ نفسه إلى أن أنهى توزيع أجـور العـمال وصرفهـم وَشَدَّدَ عَلَىْ ضرورة عدم التأخر صباح السبت القادم، ثُـمَّ حَمَـلَ بَقيةَ المبلغ وَدَخَلَ المكتب، فتبعه المهندس سليم وَقَدْ شَحَنَ نفسه للمواجهة وتهيأ لِبَحثِ الأمـرِ لكنّـه فـوجئ بعـلاء يَعـدُّ مبلـغ عشرين ألفاً وَيُقَدِّمُها لَهُ مَعَ الكشفِ ورجاهُ أن يوقع مُقَابِلَ رقم المبلغ، ثُمَّ قالَ لَهُ بخبثٍ:

- يسرني أن أكون مساعداً مخلصاً لك كَـمَا يرغـب الـسيد أبو أمين!!!

ثُمَّ بخبث أكثر:

- السيد أبو أمين شديدُ الثقةِ بِكَ وَقَدْ أكدتُ لَهُ هذه الثقة، فأنـا لَمْ ألاحظ خلال هذا الشهر إلا كلّ إتقانٍ وأمانةٍ في عملك !!

أمسك المهندس سليم بالقلم وَوَقَّعَ مقابل الرقم، ثُمَّ رَاْحَ يملأ نَظَرَهُ من علاء وَيُدَقِّقُ في تفاصيلِ هذا الوجه القروي البسيط الذي سَحَبَ منه نصف صلاحياته وبدأ يبحثُ عن السرِ الذي قَذَفَ به في بدايةِ طريقِهِ المهني ثُمَّ غادر المشروع لا يلوي عَلَىْ شيء بينما انتظر علاء باقي الموردين الذين اعتادوا الحضور آخر خميس من كلّ شهر لاستلامِ دفعاتهم محضرين معهم كشوفات حساباتهم الموردة إلى المشروع.

غادر المشروع بَعْدَ أن أكَّدَ للحارسِ الليلي ضرورةَ التيقظ والانتباه ورافقه أثناء عودته شعورٌ بالسعادة والسرور، شعورٌ بالظفرِ والنصرِ فَقَدْ قَبَضَ عَلَىْ ثمانية آلاف ليرة بيده هِيَ مرتبه لشهرٍ واحد مبلغ لَمْ يكن بمقدوره أن يحصل عَلَيْهِ لولا عمله لِذلِكَ بَقِيَ هذا الشعورُ يلازمه حَتّى وَصَلَ شارع " مخيم اليرموك "، فابتاعَ دجاجة مشوية وَولِجَ المنزل الذي كفندق خالٍ من زبائِنِه، وَفَتَحَ غرفته، وَخَلَعَ مَلابِسَه، واغتسل، ثُمَّ ارتدى لباساً منزلياً وأقبَلَ عَلَىْ التهام الدجاجة بشهية، ثُمَّ تذكر باقي الزجاجة التي خبأها بَيْنَ كتبه، فَهَبَّ إليها وَسَكَبَ كأساً واجترعه دفعة واحدة، ثُمَّ ثانية وثالثة ورابعة حَتّى غلبه التعب والنعاس فَسَقَطَ نَائِمَاً...

أما المهندس سليم فَقَدْ كَـانَ يَتَخَـبَطُ في الـشوارعِ عَـلَىْ غَـيْرِ هدى يَقُودُ سيارته ساهماً ذابلاً، لكنّه كَانَ يُخفـي داخلـه غَـضَبَاً وحزناً وبدا لَهُ أن ظُهُور هذا القروي في حياتِه كعائِقٍ لا يمكـن تجاوزه سيما وأن أبا أمين قَدْ أكَّـد هـذِهِ الحقيقـة اليـوم بتـسليمِه حساب الشهر وغادر دُوْنَ السؤال عنه ولا عـن المرحلـةِ التـي وَصَلَ العمل إليها في البناءِ لكنّه توقف فجأة وَقَالَ لنفسه يعزيها وَيُخَففُ عليها:

- لماذا لا افترض أنَّ مراقب العمال الجديد علاء هُـوَ شـقيق لأبي أمين أَو لأفترض أنَّه ابنه فماذا أنا فاعل؟

ابتسم قليلاً وَقَالَ لنفسه:

- كنت سأتعامل مَعَهُ عَلَىْ أَنَّهُ رَبّ عمل !!

ثُمَّ وَشَىْ طرف ثَغْره بابتسامة خاسرة وَقَالَ:

- حَتّى لو سَحَبَ منـي نـصف صـلاحياتي إنَّهـا رغبـة ربّ العمل !!

وتوجه نَحْوَ بيته وَقَدْ ارتاحت نفـسه بعـض الـشيء، وَفَـتَحَ باب منزله، فَبَدَا كلّ شيء ساكناً هادئاً وأمّه تتكئ عَـلَىْ الأريكـة وَقَدْ غَلَبَهَا النوم وَلَفَتَ نَظَرَهُ مائدةُ الطعامِ التي أعدتها أمّـه، ثُـمَّ

دنا من الأريكة وانحنى، وقبَّل رَأسَهَا فاستيقظت فَزِعَةً، فدفعته بلطف وقالت له:

- لماذا تأخرت يا بني ؟

فقال وَقَدْ ارتسمت عَلَىْ شفتيه ابتسامة:

- إنه الشغل يا أمي إنه الشغل!!

وظل الابتسام مرتسماً عَلَىْ شفتيْهِ إلى أن دفعته أمّه نَحْوَ الحمام وَهِيَ تقول:

- هيا بـدِّل ملابـسك واغتـسل رَيْـثَمَا أسـخن لـك العـشاء مرةً أخرى.

فَدَخَلَ ولا زالت الابتسامة عَلَىْ شفتيه كَأَنَّه نسيها بيـنما كَـانَ يُفَكرُ في علاء بجديةٍ.....

صباح اليوم التالي استيقظَ علاءُ في سـاعةٍ متـأخرةٍ مـصدع الرأسِ متعباً يَنْظُرُ بعينين خائفتين نَحْوَ الزجاجة الفارغة، ثُمَّ ما لبث أن مطَّ شفتيه هازئاً وَقَام إلى الحمام واغتسلَ وَنَظفَ غرفتـه وارتدى ملابسه وَغَـادَرَ بَعْـدَ أن حَمَـلَ مَعَـهُ الزجاجـة الفارغـة ورماها في حاويةِ النفاياتِ المقابلة أولَ شارع " مخيم اليرمـوك " وابتاع بعض الحاجيات وقصد المشفى ليزور أبيه.

انتظـرَ في غرفـةِ الاسـتقبال إلى أن ظَهَـرَ عَلَيْـهِ أبـوه، فَرَاعَـهُ الهزال الذي كسا وجهه وَهُوَ يتقدم نحوه سـاهماً ذابـلاً بـشكلٍ جَعَلَ علاءَ يجفل لخاطرٍ مَـرَّ عَـلَىْ بَالِـهِ بـأن أبـاه يعلـمُ بإهمالـه للجامعة لكنّه – سلمان - بَقِيَ صامتاً يَنْظُرُ نَحْوَ ابنه كأنّه ينتظـرُ منه أن يتحدث لكن علاء بقـي صـامتاً، ثُـمَّ ناولـه الحاجيـات التي أحضرها مَعَهُ وَهَبَّ واقفاً ينتزعُ نفسه مـن هـذا الموقـف وَحِيْنَ وصل إلى بابِ غرفة الاستقبال ويوشـك أن يخـرجَ قـالَ سلمان الحسن:

- لا تنسَ الحلمَ يا علاء!!

تَسَمَّرَ علاءُ مَكَانَهُ وَهَزَّ رَأسَهُ ثُمَّ غادر والدمعة تجولُ في عينيه بينما سَمِعَ صوت أبيه يضحك ويقول:

- سلامات بطاطا.... سلامات بطاطا !!.....

لَمْ تَمَضِّ ساعة إلا وَجَـدَ نفسه في الحافلـةِ المتجهـةِ إلى قريتِـه وَهِيَ تطوي المسافة مخلفةً وراءَها امتداد السهول الخضراء، لكنَّ علاء كَانَ يَنْظُرُ نَحْوَ شيءٍ غير منظور إلى أن وَصَلَ إلى بابِ بيتـه عصراً؛ فَطَرَقَهُ فَلَمْ يَفتحُ البابَ أحدٌ ما؛ فَخَفَقَ قَلْبُهُ بشدة خفقاناً متداركاً يَدْفَعُ بتراخـي الأعـصاب بـشكلٍ جَعَـلَ سـاقيه غـير

قادرتين عَلَىْ حمله؛ لكنّه استدرك واتجه نَحْوَ أرضه يجر قدميه متثاقلاً وخائفاً وَحِيْنَ وَصَلَ واسترق النظر إلى أمّه تجلسُ جانبَ البئر بثيابها الرثة مطرقة حزينة متقرحة اليدين من آثارِ سحب الحبل من بئر الماء اغتم قليلاً، لكنّها شعرت بوجوده؛ فَهَبَّتْ راكضةً واحتضنته باكية وَلَعَلَّ بُكائها كَانَ لغيابه عنها شهراً كاملاً، لكن علاء وبعد أن نَظَرَ حوله جيداً راعه الحالة التي وصلت إليها الشجيرات؛ فَقَدْ بسقت طولاً واخضرت أوراقها بشكل كبير، لكنّه ابتسم وعرف أن ذَلِكَ لَنْ يكون لولا مداومة أمّه عَلَىْ رَيِّهَا والعناية بها من ناحية وغنى الأرض بعناصرِها كونها أرض بكر لَمْ تستغل بشكل جيد وَلَعَلَّ أمّه لاحظت دهشة علاء فَرَبتت عَلَىْ كتفه، ثُمَّ أجفلت وقالت لَهُ:

- هل زرت أباك؟

أومأ علاء برأسه أي نعم؛ لكن عينيه كانتا تنطقان بالألمِ والقنوطِ؛ فدفعته أمّه بلطفٍ وَهِيَ تَتَأَبَّطُ ذِراعه ومشيا إلى البيت وفي الطريقِ قَالَتْ له:

- لا تخف سيكون بخير.

ثُمَّ ولجا البيت وقامت بتجهيزِ العشاءِ لَهُ؛ وأخبرها بأنّه عائد إلى العاصمةِ في الصباح الباكر دُوْنَ أن يخبرها عن عمله الجديد ولم يَقبل منها ما حاولت أن تدسَّه بجيبه، بَلْ قال لها:

- لَقَدْ تدبرت أمري لا تقلقي، بَلْ اعتني بنفسك ريثما أعود الشهر القادم.....

فجر اليوم التالي كَانَ علاءُ يقبعُ في الحافلةِ التي انطلقت إلى المدينةِ، لكن ما إن انطلقت الحافلة حَتّى اعتراه غمٌّ شديدٌ لإخفاءِ خبر إهماله للجامعة عن أمّه؛ وَتَعَجَّبَ عن سببِ تَأَثره لإخفاءِ الخبرِ بينما لَمْ يتأثر هُوَ نفسه لإهمالِهِ الجامعة، لكنّه عَادَ وَطَرَدَ الغمَّ من جديد وتهيأ لسيلٍ من الخواطرِ التي داهمته مِن كل صوب، فَسَاءته أيَّما إساءة وَكَانَ أشدَّها العلاقة التي ستربطه بالمهندس سليم وأبي أمين، بَلْ تَعدى الأمر إلى طردِ صورةِ وخيالِ كلٍ من هدى ولمياء اللتين ما انفكتا تتراءيان لَهُ مِنْذُ انطلاق الحافلة، ثُمَّ تعدى ذلك، فَطَرَدَ كل ما كَانَ يَعْتَقِدُ بِهِ عن الحبِّ وتفاسيره التي كَانَ يؤمن بها، بَلْ رَاْحَ خَاطِرُ المالِ يداهمه ويُحَدِّثُ نفسه بضرورةِ السعي لجمعه من كلّ صوبٍ وحدبٍ ورضي لنفسِه أسوة تمثلت بأبي أمين ومازن وَرَاْحَ يُؤَكِدُ لِنَفسِهَ هذه القدوة قائلاً:

- الحياة تساوي المال !!

ثُمَّ هَزَّ رأسه وَعَادَ ليكرر لنفسه:

- يجب أن أحصل عَلَىْ المالِ وليكن أبو أمين أسوةً لي، فَهُوَ يَغُطُّ الآنَ بنومٍ عميقٍ في أحضانِ زوجةٍ تصغره بثلاثين عاماً بسببِ المالِ!!

أغمض عينيه، ثُمَّ عَادَ لِيُحَدِّث نفسه:

- الكمالُ المطلقُ في الحياةِ يكمنُ في المالِ....

- نعم هُوَ التمردُ الحقيقيُ الذي يُقْنِعُ الجميعَ؛ فَمَنْ أَرَادَ بالحسنى، فبالحسنى؛ وَمَنْ أَرَادَ بغيرِ ذَلِكَ لَهُ ذَلِكَ !!

ثُمَّ انتفضَ وتابعَ يتلقى الخواطر:

- نعم الكبرياء والطموح والمجد هُوَ المال !!

شَعَرَ بسعادةٍ كبيرة بينما الحافلة تطوي الطريق والبرودة تتسربُ من بَيْنَ زجاج نوافذها، لكنّه لَمْ يكن يَشعرُ بتلك البرودة، فالخواطر سيطرت عَلَيْهِ وجعلته يقبعُ في الحافلةِ جسداً وفي غياهب الخواطر روحاً تتألمُ وتحلمُ بالقادمِ وحواساً بقيت متيقظةً كأنَّها عَلَىْ وَشَكِ الدخولِ في معركة.....

جَلَسَ علاءُ في الغرفةِ المسبقةِ الصنعِ يستلمُ كميات المواد الموردةِ وَقَدْ كَان الإعداد لسقفِ الدورِ الثالثِ عَلَىْ أشدِّهِ وَقَد نَشَطَ المهندسُ سليم بِطَلَبِ كمياتٍ كبيرة من مواد البناء مساءَ الجمعة الفائت؛ فَكَانَ مُوَرِّدُ مادة الإسمنتِ أوَّل الواصلين، فَدَخَلَ لِمُقَابَلَةِ علاء وتسليمه إشعارَ قبضِ الكميةِ، لكنَّ علاء قَدْ بَيَّتَ لأمرٍ آخرَ، إذْ فاجأ الشاب المندفع لتسليمِ الإشعارِ أن مُوَرِّداً آخر قَدْ يُكْمِلُ عنه تَوريد الإسمنتِ إذا لَمْ يوافق عَلَىْ الشروطِ نفسها التي سيلتزم بها المُوَرِّدُ الجديد.

فَتَحَ المُوَرِّدُ الشاب فَمَهُ وَحَمْلَقَ بعلاء الذي كانَ يجلسُ مادأً رجليه تحت الطاولةِ ويهزُّ بقدميه ضارباً مقدمةَ فردتي الحذاءِ ببعضهما البعض، ثُمَّ قالَ المُوَرِّدُ الشاب:

- يا سيد علاء أنا أوَرِّدُ الإسمنت للسيدِ أبي أمين منذ سنين ولم يُقَدِّمْ أي مُوَرِّدٍ آخر عرضاً أفضلَ مِمَّا قدمت، فَهَلْ لي أن أعرف ماذا قَدَّمَ المُوَرِّدُ الجديد ؟

نَظَرَ علاءُ إلى وجهِ المُوَرِّدِ الشاب بخبثٍ، لكنَّ قَلبَهُ كانَ يَخفِقُ بِشدةٍ وَسَكَنِتْ سَاقاه عن الحركةِ وازدردَ ريقه، ثُمَّ قَالَ بصوتٍ منخفضٍ:

- لقد أبدى المُوَرِّدُ الجديد استعداداً لدفعِ عمولةٍ لنا!!

هَبَطَ الخوفُ عَلَىْ وجهِ المُـوَرِّدِ الـشاب، ثُـمَّ اسـتدركَ، وَهَـزَّ رأسه، ثُمَّ قَالَ:

- ماذا تقول يا سيد علاء ؟

- ما سمعت!

تَطَلَعَ الشابُ نحو علاء وَقَـالَ بِحَـذَرٍ وقلبـه يَخفِـقُ وشـفتاه كَادَتا أن تَجفا حتّى رَاحَ يرطبهما بلسانِهِ، ثُمَّ قَالَ:

- هَلْ يعني هذا أن عليَّ أن أدفعَ عمولةً؟!

فرَدَّ علاءُ وهو يَنْظُرُ نحوَ بعضِ الأوراقِ:

- إن أردت الاستمرار في التوريد لنا !!

ازدرد المُوَرِّدُ الشابُ ريقَهُ، ثُمَّ قَالَ:

- وَكَمْ هي العمولة؟

نَظَرَ علاءُ إلى المُوَرِّدِ الشاب بثقةٍ وكأنَّه نَمِرٌ تَوثَّبَ عَلَىْ فريسةٍ وَقَالَ:

- لقد أبدى المُوَرِّدُ الجديد استعداده لدفع عمولـة هـي ٥ % من قيمة البضاعة .

فَهَتَفَ المُوَرِّدُ الشاب:

- هذا كثيرٌ !!

- لا تنسَ أن البناءَ لم ينتهِ بَعْد؛ وأمامنا مئات الأطنان حتّى يكتمل؛ فانظر كَمْ سيكون ربحكَ؟ وستجدُ أن عمولتنا لا تساوي غُرْفَةً بمنقارِ طائرٍ من وادٍ جارٍ!!!

تراجع المُوَرِّدُ الشاب وقلبه يَخْفقُ هلعاً، ثُمَّ قَالَ:

- وهل يَعلمُ المهندسُ سليم بالأمرِ؟

- نحن نعمل سوياً ولا يحبّ المهندس سليم أن يُذْكَرَ اسمه في هذا الأمر وإلا سَيَبْعَثُ في طَلَبِ المُوَرِّدِ الجديد!!

ثُمَّ بخبثٍ أكثر:

- " كلام المهندس ماشي عَلَىْ الجميع " !!

وهو يلوح برأسِه:

- بما فيهم أنا يا صديقي!!

هَزَّ الشابُ رأسه متأسفاً وأذعنَ لطلبِه لأنَّ كَمِّيَةَ الإسمنتِ التي يحتاجها البناء لِيَكْتَمِلَ كبيرة جداً، فاقتنع المُوَرِّدُ الشاب بربحٍ أَقَلّ فاسترجعَ وحَوقَلَ ثُمَّ رَمَىْ بالإشعارِ أمامه وَقَالَ لَه:

- حسناً اتفقنا!!

فَوَقَّعَ الإشعار وَغَادَرَ الْمُوَرِّدُ ليأمرَ العمالَ بتنزيلِ الإسمنتِ وتركَ علاء يصارعُ قلقَه عَلَىْ أمرٍ قد نواه ولا رجعةَ فيه لأنّه كانَ يرى وَيَعتَقِدُ أن من العسيرِ عَلَىْ الإنسانِ أن يعاشرَ أصحاب الملايين دونَ أن يَلتَحِقَ بِرَكبِهم وعَلَيه اختيار الطريق الذي يراه مناسباً لذلك.

وَمَضَى علاءُ يعرضُ الأمرَ عَلَىْ باقي الموردين؛ فَمَنْ وافق عَلَىْ دَفعِ عمولة استمر بالتوريدِ وَمَن رَفَضَ استبدله بآخر حتّى جَمَعَ فريقاً من الموردين أذعنَ لرغباتِه وامتثلَ لأوامرِه؛ فَمَضَى في أمرِه لكن لَمْ يفارق القلقُ قلبَه ولَمْ يفارق الحذرُ طريقَه وأمضى شهره الثاني في العملِ متوجساً خائفاً حتّى جَاء مَوعِد تسديد الدفعات الشهرية؛ فَسَارَعَ إلى اقتطاع عمولته والتي كان يُجَهِّزُ جداولها أولاً بأول.....

وَمَا آذنت شمسُ آخر يومٍ في الشهرِ عَلَىْ الغيابِ حتّى كانت جيوب علاء تضيقُ بنقودِ العمولةِ التي تجاوزت المئة ألفاً إذا ما أضيفت إلى مرتبه الشهري فَغَادَرَ المشروع يقظاً متوجساً حتّى إنَّه نَسِيَ أن يستقل الحافلة أو سيارة أجرة، فَمَضَى يَسيرُ

كأنَّه نائمٌ لا يدري أيـن وجهتـه لكـن سـاقيه قادتـاه إلى شـارع "مخيم اليرموك" – وَهَلْ يعرفُ غيره ؟ - فَـوَلَجَ المنـزل الـذي عَلَىْ شكلِ فندقٍ خلا من زبائنه، فَفَتَحَ باب غرفته وَدَلف وما إن همَّ بِخَلعِ ملابسِه حتّى سَمِعَ صوت صاحب المنزل ينادي عليه ويطلبُ منه دفعَ أجرة الشهر، فَخَرَجَ حتّى وَصَـلَ بـاب المنـزلِ المفتوح، فَأجفَلَ وأَنصَتَ واشرأبَّ بعنقِـه وبنظـره نَحْـوَ الفتـاة التي تَقِفُ إلى جانبِ صاحب المنزل؛ فإذْ هي لمياء ترتدي فستاناً أبيضَ وشعرها أُحكِمَ لفَّه بمنديلٍ أصفرَ، فَبَـدَتْ كأنَّهـا ملكـة، فَرَاحَ يَتَذَكر حلم ليلة ماضية وهي قَدْ ظَهَرَت بفستانِها الأبـيضَ وَرَاحت تَفُكُّ عقـدةَ المنـديلِ الأصـفرِ الـذي يلـفُّ جـديلتها، وتركته ينتشرُ كـالعطرِ، ثُـمَّ دعتـه بـإصرارٍ إلى شيءٍ مـا، فَقَطَـعَ شوطاً شاسعاً في نجواه حَتّى ارتعدَ فجأة واسـتدركَ ومـدَّ يـده بالنقودِ إلى صاحبِ المنزلِ وفكره يُحاول أن يَجِدَ جوابـاً لتـساؤله عن سبب وجودها معه لكنّـه تَـنَفَّسَ الـصعداء بعـد أن سـمع صاحب المنزل يقول لها:

- هيا يا بنتي !!

فارتاحت نفسه وهدأت روحه وتنفسَ بعمقٍ، وَقَالَ:

- هذا المساء جميل جميل.

وَرَاحَ يراقِبُها وهي تَسيرُ جانبَ والدها وَتَبْتَعِدُ حتَّى دَخَلا المنزل المقابلَ، فانطلقَ نَحْو الباب مندهشاً وهو يقولُ لنفسه:

- أكاد لا أصدق أنَّها تسكن قبالتي !!

-رباه هَلْ كنت أعمى البصر كلّ هذه المدة؟!!

مساء ذلك اليوم وَقَفَ علاءُ عَلَىْ حافةِ الطريقِ ساعةً من الزمنِ يراقبُ نوافذَ منزلها ومنّى النفس أن تطل من إحداها وَحَدَّثَ نفسه قائلاً:

- لن أغادر حتَّى أعرف نافذة غرفتها!!

وانتظرَ طويلاً حتَّى ملَّ الوقوف وَتَعِبَتْ ساقاه، فهمَّ بالرحيلِ وَقَدْ اكتسى المساء برودةً رطبةً هبَّتْ من بساتينِ "القدم" فَحَمَلَت مَعَهَا رائحة زكية لكنَّه وَقَبلَ أن يسير باغتَ نوافذَ منزلَها بنظرةٍ سريعة؛ فإذا بنافذةِ غرفتِها تفتحُ، فَظَهَرَت لمياءُ؛ فَرَاحَ يقتربُ من النافذةِ ويرنو إليها بعينين ساهمتين هائمتين، ثُمَّ تمادى في ثقته، فَمَدَّ يَدَه ملوحاً لها، فأجلمتها المفاجأة، ثُمَّ لَوَّحَ ثانية، فأدارت ظهرها كأنَّها تَرفضُ هذا التصرف الصبياني، فاقترب من النافذةِ غير مبالٍ بالمارةِ وَقَالَ:

- تعبت من الوقوفِ عَلَىْ بابكم يا لمياء !!

فَتَوردَ وجهها وَخُيِّلَ إليها أنَّها تَنظرُ إلى فارسِها الذي يمتطي حِصَانَه الأبـيضَ فابتـسمت في سِرِّهَـا وتـذكرت قـصةَ هـدى ومازن وَقَالت لنفسِها:

- لا بدَّ أنَّها الآن سعيدة بزواجِها.

ثُمَّ اقتربَ علاءُ أكثر من النافذةِ وَقَالَ لَهَا:

- أتخرجين قليلاً؟

عَبَسَت لمياءُ وَتَجَهَّمَ وجهها وَرَاحَتْ تُحَدِّقُ به بعينين محمرتين وَتَتمعَّنُ في قَسَمَاتِ وجهه بنظراتٍ فاحصةٍ؛ كأنَّهـا تبحـثُ عـن نواياه التي تختبئ في هذا الوجه القروي إلى أن قال لها:

- لا تَقِفي هكذا وتنظرين أنا لست شريراً !!

فابتسمت وقالت له:

- بعد ساعة ألقاك عَلَىْ " دوار المخيم " .....

ارتدت لمياءُ فستانها الأزرق وربطت جديلتها برباطٍ أصـفرَ حريري وَوَقَفت أمامَ المرآة تَنظرُ إلى نفسِها وتذكرت ما حَـصَلَ لمازن مع هدى؛ والحقُّ أنَّه منذ دَخَـلَ عـلاءُ طرفـاً في علاقـتهما

وهي تـذكره فيخفـقُ قلبهـا وتحلـم أن يقطـع عليهـا الطريـق إلى الجامعة لكنَّها لم تَنَلْ هذه الفرصة وها هو يقفُ أمام نافذتها ينتظـرُ أن تخرجَ عليه؛ فَخَرَجَت وَهي تحلم وتمنَّي النفسَ بِمَا تَهواه.....

لَمْ يداخلها شكٌ في حقيقةِ حبِّه لها وَلَمْ يـساورها مـا يـساور العاشقين من ارتيابٍ وسوءَ ظَنٍّ مـن لقـاء الحبيـب أول الأمـر لذلك خَرَجَت إليه وَقَد لاحَ في خاطرِها أنَّها التقت به أكثر مـن مرة وكانَ يبدو طيبَ القلبِ يرنو نحو علاقـة جـادة، فَغَـادرت منزلها متفائلةَ الفؤادِ سعيدةَ القلبِ وهائمةَ الحواسِ.

أما علاء والذي كان يَقِفُ عَلَىْ ناصيةِ " دوارِ المخيم " متعلقاً بأهدابِ الحياةِ بقوةٍ وصلابةٍ ويأملُ أن يقبضَ عليها إلى النهاية، لكنّه حين رآها اضـطربتْ أنفاسُـه و ارتجفـتْ أوصـالُه؛ وَرَاحَ يستجمعُ قواه لمقابلتها وَتَعَجَّبَ للحالةِ التي اعترته حـين رآهـا قادمة نحوه لكنَّه وَجَدَ الجواب سريعاً فأيقَنَ أنَّه لقاء حبٍ ولقاء عاشق ولهان ينتظرُ الوصال.

ولم تكن هي بأفـضل حـالٍ منـه إذ وَصَـلَت مـضطربةً خائفـةً سلمت بحياءٍ؛ فَدَعَاها للمسيرِ وسارا صامتين برهة من الـزمنِ إلى أن ولجا شارع " الزاهرة القديم " وَحَدَّثَ علاءُ نفسه سريعاً:

- رباه كيف لي أن أنسى ذكرياتي في هذا الشارع ؟!

كانت تُؤثِرُ أن يُحَدِّثها حديثاً عن الحبِّ – وهي لَمْ تخرج إلا لهذا – يلامس حالة قلبها الذي يطمحُ لسماعِ حديث يفرحُ القلبَ ويشرحُ الصدرَ ويهدئُ النفسَ وهذا ما حَصَلَ؛ إذْ أسكن علاءُ خاطرها أولاً بِمَا حفظه من كتيب " طوق الحمامة " لابن حزم الأندلسي عن حالة العاشقين وما يحصل معهم وَذَكَرَ لها أشعاره إلى أن ملَّت حديثه وَضَاقَ صدرها لأنَّ الحديثَ حديثٌ عام لا يخصها؛ فَقَالت متبرمةً:

- هل جئت لتسمعني حفظك لكتابِ " طوق الحمامة " ؟

فَوَقَفَ علاءُ وَنَظَرَ إليها ملياً حتَّى شَعَرَت أنَّها قَدْ تسرعت بهذا القول فَسَاوَرَهَا الندمُ إلى أن قَالَ:

- أنت السبب يا لمياء !!

- أنا !!

- نعم أنت !!

ثُمَّ أردفَ:

- أنا والله يا لمياء منذ رأيتك تسيرينَ مع هدى وَلَمَ أكففْ عن التفكيرِ بك لحظةً واحدة!!

ثُمَّ وَهُوَ يَضَعُ يده عَلَىْ قلبِه قَالَ:

- وَمَا قبولي بدعوةِ مازن لحضورِ حفلة زفافه عَـلَىْ هـدى إلا لأراكِ وَمَا وقوفي عَلَىْ باب كلية الآداب انتظرك إلا لأقولَ لـك إنّي أحبّك ولأتبين صفاءَ قلبك نَحوي !!

ابتسمتْ لمياءُ ابتسامةً عذبةً وأَطرقت خَجِلَةً لبرهةٍ، ثُمَّ تـأَبَّطَ ذراعها فاستغربت، ثُمَّ استكانت وسارا سـوياً وطويـا الطريـقَ عائدين وَهُمَا لا يشعران فَضَحِكَا طويلاً واتفقا عَلَىْ الإخـلاصِ إلى أن اقتربا من أولِ شارع " مخـيم اليرمـوك "؛ فَقَطَـعَ الفـراقُ والوداعُ بينهما الطريقَ وَخَبَتْ نَشوةُ الحبِّ وَجَثَمَ عَلَىْ صـدريهما الشجنُ وافترقا يَنظرُ كلّ منهما للآخرِ بلهفةٍ.....

صباح اليوم التالي استيقظَ علاءُ بِقلبٍ مفعمٍ بالحبِّ وزاخر بالنشوة، فَأَسرَعَ إلى السوقِ واشترى بعض الحاجيـات وَقَـصَدَ المشفى لزيارةِ والده؛ فَدَلفَ الصالةَ وَقَدَّمَ طَلَـبَ الزيـارة لكنّـه فوجئ بِالْمُوَظَّفِ المسؤول يقولُ له هَازئاً:

- ألا تعلم يـا سـيد عـلاء أن أَبـاكَ قَـدْ خَـرَجَ مـن المـشفى الأسبوع المنصرم !!

تسمرت قَدَمَا علاء وَبَلَغَ الـذُّلُّ منتهـاه والأسـى مـا جَـرَحَ القلبَ والخاطرَ، فَنَشَجَ باكياً كطفلٍ وحين لَمَحَ الموظفُ المسؤول ذلك تَقَدمَ منه يُواسيه وَقَالَ لَهُ:

- يا بني لَقَد حَضَرَت أمُّك الأسبوعَ المنصرم واستلمته بعـد أن استعاد توازنه!!

غَادرَ علاءُ بابَ الصالةِ محطم القلبِ والضميرِ وَقَفل راجعـاً إلى شارع " مخيم اليرموك ".

ثُمَّ رأى أن لا طَاقة له عَلَىْ البقاءِ لحظة واحدة؛ فَحَزَمَ حقيبته واستقلَّ الحافلة متوجهاً نحو قريته؛ فوصلها قبلَ الظهيرةِ.....

دَخَلَ البيتَ متوجساً حذراً وَلَمْ يكن يَدري عَلَىْ وجه اليقينِ ما سيواجه به، فَهَجَمَت الهـواجسُ عَـلَىْ قَلبِـه وَضَـاقَ صـدره فَذَهَبَ صفاءُ نفسه وَحَلَّ مَحَلَّهُ قَلَقٌ وَجَفَافٌ في الفمِ واشتدَّ سوءُ الظنِّ حتّى ارتعدت أوصاله خَوفاً؛ فَتَهَيَّأ للردِّ بأيِّ شـكلٍ لكـنّ ما إن سَـمِعَت أُمّـه صـوت أقدامـه وَسَـطَ باحـةِ المنـزلِ حتّـى خَرَجَت تحتضنه وتُقَبِّلُ وجنتيه وتقول له:

- الحمد لله يا بني لقد عاد والدك بعد أن استعادَ عافيته !!

ثُمَّ رَاحَ يُقَلِّبُ نَظَرَهُ في أرجاءِ المنزلِ يَبْحَثُ عن أبيه؛ فَأَدرَكت الأمُّ مرادَه؛ فابتَسَمَت وقالت:

- إنّه يروي شجيراته.

نَظَرَ عَلاءُ نَحو أمّه بِذِلٍ وَقَالَ:

- أمّي لَمْ أكن أملكُ الوقتَ الكافي لزيارةِ أبي في المشفى لأنني....

فَقَاطَعَته أمّه وَقالت له:

- لا عليك يا حبيبي انتبه أنت لدراستكَ وَدَعْ أَمر والدك لي.

وانتهت المقابلة عِنْدَ هذا الحدِّ إذ أَسْرَعَ علاءُ؛ والتحقَ بأبيه يُسَاعِدُهُ في عَمَلِهِ حتّى عادا سوياً قُبَيْلَ العصرِ بقليل.....

مساءً جَلَسَ علاءُ غارقاً في أخيلتِه يَتَرَقَّبُ الفرصةَ المناسبةَ لِطَرحِ موضوع زواجه من لمياء فَقَدْ تَمَلَّكَتْ قلبه وَلَمْ يَعُدْ بِمَقدورِه الابتعاد عنها لذلكَ وَبَعْدَ أن أنهوا طعام العشاءِ وجَلَسُوا لشربِ الشاي أثارَ الحديثَ عرضاً إلى أن قَالَ عبارةً ذاتَ معنى خاص علم ضمناً أنها سيدركانِ معناها من فَورِها:

- لا بُدَّ لهذا البيتِ من طفلٍ يلعبُ في باحته!!

ضحكت خديجة ضحكة عالية، ثُـمَّ أطرقـت خَجِلَـةً لأنَّهـا اعتقدت أن علاء يقصدها هي وقالت بحياء:

- سامحك الله يا علاء لقد كبرنا عَلَىْ الإنجاب!!

لكنَّ سلمان الحسن لَمْ تَفلتُ منه العبارة كَمَا تفلتت من خديجة وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ وَجه عـلاء بـصمتٍ؛ فَلَمَـحَ بعينيـه رغبـةً جامحـةً وغامضةً لاحتضانِ جَسَدٍ أهيفَ ولكن لِتَيَقظِ الشكِّ في خَاطِرِه رَاحَ يَتَسَاءَلُ:

- هَلْ هذا الطارئ عَارِضَاً أَمْ لا ؟!

وَلاحَ له هذا التساؤل لأنَّه صَدَرَ عن شابٍ بطريقةٍ فَـضَحَتْ رَغبَتَهُ في الزواجِ وأظهرها بغيرِ قَسوةٍ ولا فَظَاظَةٍ، بَلْ لَقَدْ حَافَظَ عَلَىْ عَدَمِ هَتْكِ الحياءِ.

هَكَذَا جَلَسَ سلمانُ الحسن وتَجتاحه رغبة عارمـة في حـديثٍ طويلٍ مع ابنه الذي رأى في بلوغه هذه المرحلـةَ أنَّـه قَـدْ يُـضَيِّعُ مستقبله في الجامعةِ؛ فَقَالَ لَهُ بخبثٍ:

- لماذا لا تُنجِبُ أنتَ يا علاء؟

شَعَرَ علاءُ بسرورٍ ولذةٍ وَقَالَ بزهوٍ جامحٍ:

- كلمةٌ واحدةٌ منكم تَمـلَأُ روحـي بالـسعادةِ والأمـلِ وَلَـنْ أطيلَ عليكم الحديث؛ وهو يَنظرُ إلى أمِّه قَالَ:

- أريدُ أن أَتَزَوَّجَ!!

اندفعت خديجةُ فرحةً وقالت مفترةَ الثغرِ:

- ساعةٌ مباركةٌ يا بني.

لكنَّها أجفلت، ثُمَّ قالت.

-تتزوج ودراستك؟!!!

- لِنْ يُضيرَ دراستي إذا ما تزوجت!!

لَمْ تَكن خديجةُ تُخفي رَغبتَهَا بتزويجِ علاء، لكنَّ فُقرَ الحالِ هو ما كانَ يَمنعُهَا وَلَمْ تكن تلقي بالاً لكلامِ المشروعِ والأحـلامِ مِمَّـا جَعَلَهَا تَرُدُّ بكلامٍ هو للعقلِ أقرب منه إلى القلبِ فَقَالت:

- من أينَ المال لتتزوجَ يا بني ؟!!

ثُمَّ أردفت وَهَي تَضحكُ:

- أكمل دراستك ولاحقاً نزوجكَ.

لاحَتْ في عَيني سلمان سيما الكدر وَغَبَشَ الانزعاجِ، فـاغتمَّ وأطرقَ طويلاً، ثُمَّ قال:

- وَالحلم.

- أي حلم يا أبي؟

- مشروعك ... مستقبلك أنت لَمْ تنتَهِ من الجامعة بعد!!

- لَنْ يُضيرَ مستقبلي إذا ما تزوجت!!

- بَلْ يضيرها أنت لَمْ تَزَلْ صغيراً وَغَيْرَ قادرٍ عَلَىْ تَبَني أي مشروع!!

ثُمَّ بهدوء قال:

- بعد تخرجك يمكن أن يكون زواجاً محل بحث!!

- ولماذا تزوجت أنت قبل أن تنهي دراستك ؟!!

بُهِتَ سلمان الحسن وانتصبَ واقفاً وَرَشَحَ العرقُ فوقَ جبينه وَقَالَ مَكسورَ الخاطرِ:

- أنا شيءٌ آخر!!!

أجفلت خديجةُ فَقَدْ دَخَلَ الطرفانُ في نقاشٍ جديدٍ وراحت تُشيرُ إلى علاء الكفَّ عن الحديثِ؛ فَقَالَ سلمانُ الحسن لها:

- لا تقلقي يا خديجة أنا من سيصمت مِنذُ الآن وَسَارَ نَحوَ السلّم وَصَعَدَ إلى السطحِ بينما استمرَّ علاءُ يَهتِفُ بصوتٍ عالٍ:

- سأتزوجُ من لمياء " وطز " في كلّ المشاريعِ التي لا تَجعلُ من المالِ سيِّد المشاريع.

حثَّ سلمانُ الحسن خطاه وَسَارَ؛ فَبَلَغَ السلّم الخشبي وارتقى سَطْحَ مَنزِلِه الطيني يُجَاهِدُ الظلمة الدامسة، كاتماً لنفسه يده تتلمسُ حديد سريره البارد؛ فَيَنكَمِش قلبه وَتَسري في عروقه قشعريرة لا يعرفُ مَدَاها، ثُمَّ راحت عيناه تطرقان عنان السماءِ يبحثُ عن نجمة أو نجمتان لكنَّه حَظي بكوكبةٍ من النجومِ، فَخَفَقَ القلبُ، وانبعثَ الشوقُ، والحنينُ وَهَوَى عَلَىْ السريرِ جالساً ومن بعيدٍ سَمِعَ صوت صفير قطار ورأى امرأتين إحداهما خديجة والأخرى أمّه وَسَمِعَهَا تَقولُ له:

- " يما... حبيبي اركب بالقطار أجرته أرخص ولا تصرف إلا عَلَىْ قدك وإذا علمت أن مكروهاً قَدْ أصابني، فلا تجزع كلنا سنموت يوماً المهم أن تعودَ طبيباً يا سلمان " !!!

- " يما يا سلمان الحكومة أحسن من إخوانك، لأنَّها ستصرف عليك حَتّى تصير دكتوراً، كل واحد لاف حاله بحضن مرتو مثل الكلـ.... "

- " لا يما لا تكملي... "

- " تكرم حبيبي تكرم ما رح أكمل، لكن ما في واحد منهم ناولك ليرة سورية؛ عرفت ليش الحكومة أحسن منهم ؟ وأنت كمان يما يا سلمان أنت أحسن منهم "**.....**

لما وجدت خديجة أن علاء جادٌ ومعاندٌ في طَلَبِه؛ كَمَا أنّه أخبرها أنَّه يعملُ في الليل عملاً يدرُّ عليه ربحاً وفيراً وامتنع أن يخبرها عن طبيعةِ هذا العمل؛ فقامت ولحقت بزوجِها أَعلى السطح وَجَلَسَت جانبه وَنَظَرَت في عينيه؛ فَرَأت آثارَ العبراتِ تتحينُ الفرصةَ لتسيلَ عَلَىْ خَديه؛ فَمَسَحَت عَلَىْ رأسِه؛ ثُمَّ قالت:

- دعه يتزوج يا سلمان**!!**

ثُمَّ أردفت:

- كَيْ نكسب ابننا الوحيد **!!**

تولى سلمانَ القنوطُ؛ ثُمَّ راحَ يرفعُ رأسه عالياً وَقَالَ:

- فليفعل ما يشاء**...** فليفعل ما يشاء **!!!**

ثُمَّ أطرقَ وَقَالَ:

- لكن دعوني مع شجيراتي**...** دعوني مع شجيراتي**.....**

ما إن آذنت شمسُ ضحى يوم الجمعة التالية حتّى كانَ صالون مَنزل والد لمياء يستقبلُ خديجةَ وزوجَها سلمان وابنهما علاء الذي بدا بحلةٍ جديدةٍ ببذلتِهِ الجديدة وربطة عنقه الأنيقة وَكَان قَبلهَا قَدْ زارَ الحلاقَ، فَقَصَّ شَعرهُ، وَحَفَّ ذقنه، فَكَان مَثَارَ إعجابِ عائِلة العروس من جهة، ومثارَ غبطة ورضا عائلته من جهة أخرى.

وَلَمْ يَطُلْ انتظار العائلة الصغيرة كثيراً، إذ أسرعَ والد لمياء بالموافقةِ عَلَىْ زواجِ ابنته ولعلّه كانَ متشوقاً لذلك لأنَّه أبٌ لسبعِ بناتٍ أخريات خمسٌ منهنَّ في سنِ الزواجِ وراتبه التقاعدي كعاملٍ سابقٍ في فوجِ إطفاءِ المدينة لا يَكَادُ يكفيْهِ لولا إيراد إيجار البيت الذي ورثه عن أبيْهِ.

كَمَا لَمْ تكن أمّها التي تعاني ارتفاعاً دائماً للضغط بأقل رغبة من زوجها بالموافقة عَلَىْ زواجِ ابنتها من علاء؛ فَسَارَت الأمورُ كَمَا يُريدُ ويرضى؛ فَأَسرَعَ واستأجر شقةً في حيٍّ متفرعٍ عن شارعِ " الزاهرةِ القديمِ " وحددت حفلة الزفاف خميس الأسبوع المقبل.....

وانتظرَ علاءُ مساءَ الخميس المقبل بقَلَقٍ مُتَواصل؛ فَقَضَى أيامه ولياليه شاردَ النفسِ قلق الخاطر والعجيب أنَّه لَمْ يتوانَ في عَملهِ نهاراً والتسوق برفقةِ لمياءَ ليلاً حتّى أكمل أثاث بيته وشراء أدوات مطبخه وملابس لمياء وفستان الزفاف، ثُمَّ تَرَكَ لها حرية دعوة من تشاء من صديقاتها وَلَمْ يكنَّ كثيرات إلا أن هدى وزوجها مازن كانا عَلَىْ رأس المدعوين إذْ حَضَرَا وَمَعَهُمَا هديةً ثمينةً وَلَمْ تكن الحفلة التي أقيمت بالكبيرةِ إذْ اكتفيا بحفلةٍ صغيرةٍ في شقتهما، ثُمَّ غَادَرَ المدعوون جمعياً وغادرت أمّه وأبوهُ، فاستأجرا سيارة أجرة أوصلتهما إلى بيتهما.....

انتظرت لمياءُ كغيرها من الفتيات – اللواتي هُنَّ في سنِ الزواجِ - فارسها في قلقٍ وترقبٍ وَلَمْ يكن يُدَاخِلها شكٌّ بأنَّه سيأتي يوماً ما؛ وها هو علاء وَقَد طَرَقَ بابَ بيتها وَحَمَلَهَا مَعَهُ عَلَىْ حِصَانِهِ الأبيضَ فَكَفَّتْ عن الترقبِ وراحت تَطردُ الخوفَ الذي كان يُخَامِرُهَا قبل ذلك وَقَضَتْ ليلتَها الأولى بِطَمَأنينةٍ؛ فَتَنَهَدَت من الأعماقِ ارتياحاً واطمأنت وَتَوثَبَت لبناءِ أسرةٍ سعيدةٍ يحتضنها الحبُّ والحنانُ وَلِكَيْ لا تَتَوانى في هذا التوثبِ

فاستيقظت باكراً وأجبرت علاء عَلَىْ الاستيقاظِ مَعَهَا وَشَرِبَا قَهوةَ الصباحِ لأولِ مرةٍ سوياً.....

مَضَتْ الشهور الثلاثة الأولى سريعاً وَعَلاءُ يعيشُ في فرحٍ وغبطةٍ كبيرين فَقَدْ كانت الحياة تسيرُ مَعَهُ كَمَا يُريدُ وَبَاتَ يَشعُرُ أنَّها لا تُعَانده ولا تَقِفُ له في طريقِ سعادةٍ فَهَا هي نُقودُ العمولةِ تضيقُ بها جيوبه ولمياء تملأُ عليه البيتَ سعادةً وطمأنينةً؛ ومن عجيبِ الأمرِ أنَّه اعتادَ عَدَمَ الخوفِ وصارت عواطفه تُجاهه باردةً لا مباليةً، فَكَتَمَ سراً رغبته بشراءِ بيتٍ؛ فَرَاحَ يَدَّخِرُ بدونِ علمِ لمياء حتَّى اكتملَ ثَمَنه فاشتراهُ؛ وانتقل إليه وَرَاحَ يُقبلُ عَلَىْ الدنيا فَلَم يَجِدُ من ملذاتِها ما يفوق لذة امتلاك المال؛ فسار وراء هذه اللذة وأدرك أن النكوص عنها صار مستحيلاً لأنَّها هي السعادة المنشودة والأمل المرتقب وكثيراً ما ردد لنفسه نهاية كل شهر وهو يقبض عَلَىْ العمولة بنفس مليئة بالطمأنينة:

- لا يُسأل الغني عن أولِ مليون جَمَعَهُ !!.....

رغمَ العيش في جحيمِ الهواجسِ عاشَ علاءُ عَامَهُ الأولَ مَعَ لمياء بحبٍّ وَطَمَأنينةٍ وَكَادَتْ تَنحَصِرُ حياته بينَ عَمَله الذي أخبرَ لمياءَ به فَورَ زواجهما وأخبرها بأنَّه لَمْ يوفق بالترفعِ إلى السنةِ

الرابعةِ كَمَا أنَّها هي لم تُوّفَقُ بالترفعِ إلى السنةِ الثالثةِ وبينَ زيارةِ أهلِ زوجتِه من ناحية وأهلِه من ناحيةٍ أخرى.

مَعَ كلِّ هذهِ الطمأنينة التي كانَ يعيشُها لم يكن المهندس سليم مِمَّن تَنطلي عَليه حِكَايَة قرب علاء من السيد أبي أمين وَتَدَخُّلُه بأمورِ العمالِ ومحاسبتهم وصرف الرواتب لَهم وَمِن عجيبِ الأمرِ أنَّ المهندسَ سليم نَفسَه وَبَعْدَ أن يستلمَ النقودَ من أبي أمين كان يُسرِعُ ويدفعها إلى علاء ليقومَ بتوزيعها عَلَىْ العمال والموردين؛ وكأنَّه اقتنع ضمناً أن رغبة أبو أمين هي في تَوَلِّي علاء هذه المهمة وَربّما كانَ هذا من ضعفٍ في شخصيةِ المهندسِ سليم الذي تربى عليها يتيماً في كنف أمٍّ رَعَتْهُ حتَّى صَارَ مُهندساً لذلك رَاحَ المهندسُ سليم ببطءٍ وخوفٍ يُراجِعُ لوائحَ أسماء العمال وكثيراً ما وَجَدَ أسماءً وهميةً تضافُ إلى هذه اللوائحِ؛ فَبَقِيَ عَلَىْ مَضَضٍ وَتَوجُّسٍ واستكراهٍ يُخَطِّطُ لأمرٍ مَاْ؟.

وَمَع هذا فَقَدْ تابعت الدنيا أكثر وأكثر تَضحكُ لعلاء؛ فَوَضَعَتْ لمياءُ طفلَها الأول وَلَمْ تكن الفرحةُ التي دَخَلَ بِها علاء وزوجته لمياء يحملان طفلهما تَمُرُّ هكذا إذْ دَخَلا باحةَ المنزلِ فَوَجَدَا سلمان الحسن يَقبَعُ فوقَ كرسيه الخشبي غارقاً في أخيلته

وَحين رآهما وَقَفَ مشدوهاً وَحَمْلَقَ بعينينِ ذابلتينِ تخنقهما العبراتُ وَقَالَ:

- أهو ابنك يا علاء ؟!!

- نعم يا أبي ابني سلمان !!!

ولم تكن خديجة بأقل دهشة من زوجها فاقتربت منه تحتضنه والعبرات تخنقُ صوتها فلم يعد يخرجُ إلا نشيجاً؛ فَقَد كانت ومازالت تعيشُ عَلَىْ الفطرةِ ولا تعرفُ إلا الحبَّ والحنان اللذين صارا جوهر حياتها وسبب تعلقِها بها.....

وَجَاءَ شهرٌ آخر وتهيأَ علاءُ لاستلامِ دفعة جديدة من النقودِ ليقومَ بدفعِها للعمالِ و الموردين، لكنَّه كانَ خائفاً مُتوجساً كَعَادته وقت اقتراب موعد التسليم وَمَع كلّ هذا فكان كلّ شيء يتلاشى حينَ يرى حقيبةَ النقودِ تَصِلُ إلى المشروعِ، مَعَ المحاسبِ أو مساعده أو حتَّى أبي أمين؛ فَيَتَمَلكه شعورٌ غريب وتذهلُ عيناه، ويَخفِقُ قلبه، ويندفعُ ليحملها وَيَدخلُ إلى الغرفة مسبقة الصنع ويدخلُ في حساباته لكن هذا الشهر كان مختلفاً؛ إذ استلمَ المهندسُ سليم النقود وَقَبَعَ في الغرفةِ ينتظرُ دخولَ علاء عليه وهذا ما حَصَلَ؛ إذْ دَخَلَ علاءُ وَسَلَّمَ بتواضعٍ

وَجَلَسَ قُبَالتَه، كانا مُنفردين تَبَادلا النظـراتِ الطويلـة والمـساء يبعثُ طمأنينةً في نفسِ المهنـدسِ سـليم - بعـد تـسريب أحـد الموردين خَبَرَ العمولة إليه - وقلقاً وتوجساً في نفسِ علاء، ثُـمَّ قَالَ المهندسُ سليم:

- أعطني لوائح أسماء العمال ومرتباتهم!!

ثُمَّ أردف:

- وجداولَ الموردين ودفعاتهم!!!

أَجفَلَ علاءُ وَحَملَقَ بعينـينِ محمـرتينِ وَخُيِّـلَ إليِّـه أن سَـقفَ الغرفةِ قد استحالَ إلى بقعـةٍ مـن قطـنٍ أبـيضَ ناصـعَ البيـاضِ والسلكَ الكهربائي المتدلي منها كأفعوانٍ أسـودَ بـارعَ الرونـقِ؛ ناعمَ الملمسِ، لامعَ المنظرِ؛ ولم يَدُمْ هذا الشعورُ طويلاً إذْ اندفعَ علاءُ نَحو المهندس وَخَطَفَ الحقيبةَ وَصَرخَ بأعلى صوته:

- أنا من سيصرفُ الرواتبَ والدفعات !!!

فَرَدَّ عليه المهندس سـليم بكذبـةٍ اخترعهـا لِوَقتِـهِ خَفَـقَ لَهَـا فُؤاده؛ وَتَجَمَّدَ قلبه رُعباً؛ فَقَالَ كَاذباً:

- طَلَبَ السيدُ أبو أمين مني الإشرافَ عَلَىْ صرفِ الرواتـبِ والدفعاتِ؛ فَأَنَا مُديرُ المشروعِ!!.....

لكنَّ علاء لمْ يكترث لكلامِه وَخَطفَ الحقيبةَ وَفَـرَّ خارجـاً يركضُ كالمجنونِ وَغَادَرَ المشروعَ، فَتَلَقَّفَته الطرقات، يَتَنَاثَرُ ظِلُّهُ ليلاً من زقاقٍ إلى زقاق وَبَدَأ يَنْسلُّ من بين الناسِ منكفئاً وصَارَ الرعبُ يلازمه ليلَ نهار، فَكَانَ يُوهِمُ نفسه بعدمِ الاكتراثِ، مـع أن جميع العلامات الظاهرة على وجهِهِ تُنذِرُ بحالَةِ الخوف التـي تَعتريه وَرَاحَ يَسأَلُ نفسه:

- أَيَنبَغَي أن أَدخُلَ السجن ؟

- أن أتركَ الدنيا وَرَائي ؟!

- أن أتخلى عن حلم أبي المسكين ؟!!

تأخذه العبرة حينَ يذكرُ الدنيا وَيَنتابـه إحـساسٌ مَفَـادُه أَنَّـه مَضَى أبعَدَ مِمَّا ينبغي وإن هَبَطَ عليه بعض الاطمئنان حـينَ رَاحَ يُوهِمُ نفسه بأنَّ جميع الأغنياء صعدوا السلم بالطريقةِ نفسها.

بلا نجاحٍ حَاوَلَ الهروبَ من الطرقاتِ؛ لكنّهـا ظلّـت ماثلـةً أمامه وَرَاحَ يعتقدُ أكثر من ذي قبل وَيُدرِكُ بأنَّ الحدَّ الأقصى من الخوفِ هو ليسَ من السجنِ فَقَط بَلْ من الناسِ والعائلـة التـي تَجْتَرُّ الخيبةَ وعليها أن تَنتظر ربع قرنٍ كَيْ يمشي سلمانُ الـصغير في طريقِ حلمٍ قيد التحقيق.

استقلَّ سيارة أجرة وَرَاحَ يَدورُ في الطرقـاتِ، ثُـمَّ مَـرَّت بـه سيارة الأجرة من أمام الجامعة، عيناه كانتا تراقبان سيلَ الطلبـةِ وَسَأَلَ نفسه:

- تُرى هَلْ سأعيشُ حتَى يلتحق ابني بها؟!!

وَعَلَى الفورِ طَرَدَ هذه الفكرة من رأسه وَتَـشَاغَلَ بـالنظرِ إلى ساعته حين لَحِظَ السائقُ قلقه.

أفرحه جريان الماءِ في بردى مجدداً بعد سنين قحط وتساءل:

- لماذا يَفرحُ لجريانِ الماء فيه؟!!

فَأَقنَعَ نفسه بأنَّه يحبُّ الخيرَ للجميع وهذا مَا أَدخَلَ الغبطة إلى نفسه لدقائق.

نَزَلَ من سيارةِ الأجرة غابَ بين الطرقاتِ مجدداً مـن " بـاب الجابيـة " إلى أزقَّـةِ دمـشق القديمـة وزَّع نظراتـه عليهـا جميعـاً بالتساوي وأَتَّخَذَ ركناً في زاويةٍ وأغفى لثوانٍ وَرَاحَ في حلمٍ قلـق حتَّى هَبَطَت ذُبابةٌ فوقَ جبينه تَتَحَرَّكُ فوقه كالمذعورةِ تجبره على تحريكِ قَسَمَاتِ وجهه بامتعاظ ها هي تسيرُ نحو خـده الأيمـن تضايقه لوَّحَ بيدِه يريدُ سحقها لكنها، انتزعت نفسها من قبضته وطارت إلى حيث لم يَعُدْ يَراها ثُمَّ سار على غَيْرِ هـدى؛ فَتَلَقَّفَتـه

الشمسُ المحرقة وبدأت تسيلُ فوقَ رأسه وتجبره عـلى اختـزالِ جميع الصور المتلاحقة لنسجِ المشاعرِ بأبعادِهَا الخفية كالفقاقيع، فانزوت شفتاه بهيئة باكيةٍ وانتهـى الأمـر بدمعـةٍ سَـقَطَتْ دونَ علمه، لأنَّه وحيدٌ وحيد ويعـرفُ أن شـيئاً مـا في الطريـقِ إليـه يَتَطَفلُ على سعادتِه.

رفَعَ رأسه عاليـاً وامتـدَّ بـصره إلى الـشمس المحرقـة وهـي تستعدُّ لصفعِه قبلَ أن تَخفـي نفـسها وراءَ البـستان؛ فَـدَخَلَ في ظلمةٍ رماديةٍ شحيحة وأُغلقت الدنيا أمامه وَسَقَطَ مغشياً عليه.

يديرُ له الطبيب رأسه مبتسماً، فينظر إليه بعينين ذابلتين يتمنى أن يفترَّ عن فمِهِ ابتسامة ليفسر له ماذا يفعل عـلى هـذا الـسرير الأبيض عـاري الـصدر يتـنفس مـن أنبـوب مطـاطي يلجمـه كحصان؟ !!

ثُمَّ غَابَ الطبيبُ من أمامه وصارَ الهواءُ الباردُ وهو يَتَـسَرَّبُ إليه من الأنبوبِ نفسه أكثر إنعاشاً من ذي قبل.

صورٌ جميلةٌ سوداءَ تكفي لصنعِ إطـارٍ عَـلَىْ شـكلِ بحـيراتٍ صغيرة يسمعُ صوتاً يخالُه همساً:

- لا تخف أنت بخير!!

يشعرُ أنَّه ليس وحده ثَمَّة امرأة عَلَىْ شكلِ غيمة تحومُ حوله يتبين بعض ملامحها البيضاءَ رغم السوادِ الأعظم الذي يُثقِلُ عينيه كستارٍ مخمليٍّ أسودَ.

كانت الساعات تنقضي، والواجهاتُ تصيرُ سوداءَ و كان يرفعُ رأسه بينَ الفينة والفينة والباب يفغرُ فمه للطبيب ليدخلَ عليه ويحقنه بآخرِ حقنة منعشة بينما تابعت المرأة التي عَلَى شكلِ غيمة بيضاءَ النظر إليه والشرطة تتهيأُ لطيِّ الصفحة الأخيرة من مُطاردته وأُدخِلَ السجن.....

وَهُناكَ لَمْ يَجِدْ علاءُ في انتظارِه أحدٌ سِوَى غُبارٍ خانقٍ وحرٍّ لا يُطَاق وبذلةٍ زرقاءَ مخططةٍ وحذاءٍ مطاطيٍ رخيصٍ، فُتِحَتْ لَهُ أبواب السجن الصماء؛ فَدَخَلَهَا وَبَدَأ يُكَدِّسُ أسرارها سراً وراءَ سر وَتَرَكَ الناسَ جميعاً خلفَه، الجالسينَ، العابرينَ، المشاةَ، الراكبينَ ونَسِيَ خَلفَهُ الشوارع و الطرقات المثقلة بالخطواتِ، كشارعِ " مخيم اليرموكِ "، وشارع " مخيم فلسطين "، وشارع " الزاهرة القديم"، وسوق "النحاسين"، وتلك الدكاكين العتيقة، وَجَميع المشاهد الطافية عَلَىْ جدارِ

كلِّ بناءٍ عتيق؛ تكتنفه أسطحهُ القائمةَ عَلَىْ الدعائمِ الخشبيةِ كَجَنَاحَيِّ حلمٍ كبيرٍ كبيرٍ....

عندما اجتازَ القطارُ محطة إزرع كان المساء الحالم قد اكتسى حلية رمادية اللون؛ وبدا كأنه يقترب من نهاية الرحلة، فتهيأ سلمان واقفاً وفتح النافذة، فتسرب بعض الهواء البارد، فاستيقظ الصغير وتململ باحثاً عن ثدي أمه، فلاحت في عيني جدته خديجة نظرة حب وحنان تبعها دمعة على ابنها وهي تتذكر كلمات القاضي الذي أصدر بحقه حكماً بالسجن لخيانة الأمانة.

أما لمياء فقد أطبقت على شفتيها وهي ترضع الصغير واستسلمت لأفكار وتصورات كثيرة هبطت عليها جعلت طيور الحب تتوقف عن التغريد، ثم عادت ورضيت بواقعها وتهيأت للعيش مع ابنها في كنف جده الذي حافظ على صمته حتى وصلوا إلى القرية.

وحين راحت خديجة ترحب بلمياء وحفيدها سلمان الصغير وتصحبهم إلى غرفة علاء التي تحولت إلى غرفة لها ولابنها قفز سلمان كلاعب سيرك خفيف متسلقاً جدار منزله الطيني وراح

يعد نجوم السماء نجمة وراء نجمة فرأى امرأتين أحداهما خديجة لكن بدت فتية جداً والأخرى عجوز هِيَ أمّه تقفان مودعتان ويسمعُ أمّه تقول:

- " يما... حبيبي اركب بالقطار أجرته أرخص ولا تصرف إلا عَلَىْ قدك وإذا علمت أن مكروهاً قَدْ أصابني، فلا تجزع كلنا سنموت يوماً المهم أن تعودَ طبيباً يا سلمان " !!!

- " يما يا سلمان الحكومة أحسن من إخوانك، لأنَّها ستصرف عليك حَتّى تصير دكتوراً، كل واحد لاف حاله بحضن مرتو مثل الكلـ.... "

وانقضت ثلاث سنوات ....

ألقى سلمان نظرة طويلة على سرب الزيتون الذي تفتح زهره، فنشر عبقاً ملأ الأفق، ثم مضى ماشياً يستعرض شجيراته الفتية وقد وعدت بأول موسم، وراحت يداه النحيلتان تتلمسان أغصانها الفتية بسعادة تارة و شيب رأسه تارة أخرى، فبدا أن الأعوام تتراكم فوق رأسه، فأجبرت عظام الوجه على النتوء، فغارتا عيناه فيها وبدتا كحبتي خرز أزرق في كومة قش.

من بعيد ظهرت خديجة ومعها سلمان الصغير تتجهان نحوه - وتلك عادة ما انفكت تداوم عليها باصطحابه في نزهة يومية إلى بستان جده – فارتفعت عيناه نحوهما ولم يعلق بأي كلمة؛ لكنها قرأت في عينيه - ولم تستطع أن تتجاهل ذلك - سؤالاً يوجهه إليها كل يوم وهو ينظر إلى حفيده عن ابنه علاء الذي أثقل غيابه فرح العائلة فلم تعد تعرف للسرور مكان؛ إلا وهم يراقبون نشاط وكثر حركة سلمان الصغير تبدد بعض هذا الحزن فكانوا يروا طفولة علاء من جديد فقد شابهه في كل شيء حتى مشيته ونظرة عينيه....

رغم ضبطه لمشاعره اغرورقت عيناه اللتان كادتا أن تُطمسان في عظام وجهه وهو يراقب حبات الزيتون وهي تثقل جذوع شجيراته الفتية لكن وبعد أن سطعته رائحتها وفاحت كأنفاس الزهر الندية لم يعد بإمكانه أن يضبط مشاعره أكثر فانهمرت عيناه بالدموع ....

حشد من الوجوه تتطلع باندهاش وهي تكتشف ضحل فكر الفلاح الذي يقبع منتظراً المطر ليحصل على موسم شعير رديء فبدا لهم سلمان كتمثال ضخم مليء بالضخامة رغم نحول جسده وتكاثرت الأسئلة دون جواب :

- ماذا بعد يا سلمان..؟

الحق أن الأيام القادمة كانت الأشد على سلمان وهو يدأب على شجيراته سقاية ورياً و حراثة حتى كادت أن تهلكه لكن أمله بموسم قطاف بكر على قلته جعلته يسترد ما تبعثر من ثقته وتوازنه على مر السنين وجاء الموعد في لحظة فرح عارمة فاندفع سلمان ومن ورائه خديجة ولمياء لجني أول محصول زيتون وسط الحشود المندهشة نفسها...

كان من اليسير عليه الصعود إلى السطح لكنه لم يفعل بل راح يدور حول صناديق الزيتون المرتبة وسط ساحة منزله واعتقد جازماً أنه لم ينم ليلتها حتى انبثق الفجر فأسرع يطلب استئجار شاحنة صغيرة وخرج من القرية والشمس لم توقظ قريته بعد.

من اليسير القول إنَّ خديجة لم تقلق حين لم تجد سلمان ينام جانبها حين استيقظت لكنها بعد أن رأت باحة المنزل خالية من صناديق الزيتون راح القلق يزحف إلى قلبها ببطء ويتخذ هيبة وملامح حفية لا تعوز الناظر إليها كثيراً من الفطنة لملاحظتها ورغم ذلك فقد حافظت على ثقتها وإدراكها لحقيقة أن سلمان

قد وضع زراعة بستان الزيتون مشروع وجود وما اندفاعه للعناية به إلا دليل قوي لا يقبل الشك على ذلك، وكان المساء جميلاً حين زرع البسمة على وجهها وهي ترى سلمان يدخل البيت مع ست صفائح زيت وضعها وسط باحة المنزل وراح يدور حولها راقصاً وانضمت إليه خديجة ولمياء ترقصان وسط دهشة سلمان الصغير الذي وجد في متابعتهم متعة لم يسبق أن رآها سابقاً ولم تكن الرقصة بالطويلة إذا ما قورنت برقصة الموسم الثاني فقد تحولت شجيرات سلمان إلى بستان لزم استئجار عمال حتى استطاع أن يجني محصوله والذي تجاوز خمساً وعشرين صفيحة زيت....

عندما يحقق المرء حلماً سيجد نفسه يحلق خارج أسوار الزمان والمكان لكن اللوعة أبداً ستجد طريقها إلى قلبه إذا ما كان يفتقد حبيباً أو عزيزاً فصورة علاء لم تكن تغيب عن خياله وفكره ولم تكن الحكايات ولا القصص التي تناوب الجد والجدة لسردها على سلمان الصغير وهو يتهيأ للنوم كل يوم لتنسيه علاء الذي يقبع في السجن ورفض زيارته البتة ومنع خديجة ولمياء اللتان كانتا تزورانه كل شهرين من اصطحاب

الصغير لزيارته بعد أن أقنع العائلة بالكذب على الصغير لمرة واحدة بأن علاء مسافر ويلزمه وقت طويل للعودة....

سهر الليالي الطويلة كلها فوق سطح منزله الطيني لم يكن معه في الظلام سوى النجوم تومض في قبة السماء. يحاورها... يعدها... يبعث إليها بأشواقه ورسائله... يسألها عن علاء بعد أن تحقق طرف حلمه المنشود؛ عن موعد تحقق طرف حلمه الآخر، فانفرجت الظلمة عن فسحة في السماء.. كانت هناك غابة زيتون يكتنفها جبل تنحدر منه أودية خضراء مدججة بالحزن والحنين ورأى الجموع تنحدر منتشرة على المدى تجوب الأرض الجرداء تحفرها وتحرثها وتزرعها فسائل من شجر الزيتون وزعها على كل قاص ودان من سكان قريته قوافل تزرع وأخرى تحفر الآبار وقوافل محملة بصناديق الزيتون إلى المدينة لعصرها واستخراج الزيت منها وقوافل تمتطي جذوعها العملاقة تقطف وتجني لكن هذا لم يكن إلا طرف حلم قد تحقق وراح ينظر نحو الطرف الآخر من الحلم عندها شعر بوثبة نصر فخامرته سعادة كبيرة وهو ينظر نحوه وينتظر وينتظر.

علي أحمد العبدالله

- علي أحمد العبدالله.
- مواليد: درعا – كحيل ١٩٦٣.
- قاص وروائي – عضو اتحاد الكتاب العرب.
- أمين سر جمعية القصة والرواية.
- عمل محرراً في جريدة الأسبوع الأدبي ونُشر نتاجه في الدوريات والصحف المحلية.

صدر له:

- قاعة العرش الباردة، مجموعة قصصية وثلاث روايات وهي:
  ١- رواية حلاق حي الكباس.
  ٢- رواية رجل منسي.
  ٣- رواية نزف الذاكرة.
- استشهد في دمشق بتاريخ ٢٠١٦/٧/٢٤م، على إثر تساقط قذائف الحقد التي أطلقها الإرهابيون.

٢٠٢٢ م